كتب للجميع



لفكرى أباظة بك

جميع الحقوق محفوظة



٢٥ شـــارع توفيق القاهرة

طبع بمطابع جريدة « المصرى »

كتب للجميع



فكري أباظة

جميع الحقوق محفوظة



٣٥ شـــارع توفيق القاهرة

طبع بمطابع جريدة « المصري »

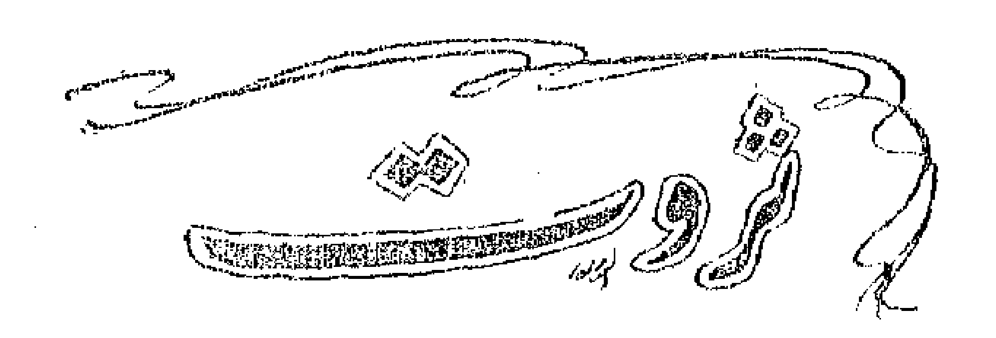
كل ما في هذا الكتاب قد وقع . . .

فاقرأوه على أنه حقيقة . . .

ولا تقرأوه اذا ظننتم أنه خيال

فكرى أباظه

المحامى



الدمعة الاولى ! ...

نحن الآن فى اغسطس سنة ١٩١٧ ...

وقد تخرج الاستاذ « شكرى ... » فى مدرسة الحقوق ، حاملا شهادة « الليسانس » . ولكن فرحه بها كان دون فرحه بلقب « استاذ » . وهو لاول مرة يعنى بلبس « النظارة » كأنها من مستلزمات الفقهاء أساطين القانون ، ويحمل عصا فاخرة تزن مشيته على قاعدة موسيقية ليس فيها نشاز . وتساعد على أن تبدو مشيته رزينة فى نظر مخلوقات الله و «زبائن المستقبل» ...

والاستاذ « شكرى ... » لم ينس بطبيعة الحال أن يلبس ياقة اسطوانية ورباط رقبة من نوع ما يلبسه الرسامون والممثلون وارباب الخيال ...

هل أفلحت كل هذه الاستعدادات فى أن تجعل من مواد خلقته «الخام» شيئا جميلا ؟!

يقول الآنسات والسيدات واصدقاؤه الشبان ومعارفه الرجال : كلا !

ويصر هو على أن يكون الجواب بالايجاب ...

على أن المشكلة لم تكن وليدة هذا الخلاف . بل ان انكى ما نكب به هذا « الاستاذ » ان خصومه فى جماله كانوا يجمعون على الاعتراف بأن « تقاطيع » وجهه منفصلة مجزأة مستقلة جميلة .. أى أن كل واحدة على حدتها لاعيب فيها . ولكنهم يجمعون فى الوقت نفسه على ان مجموعها ليس بالجميل ... وكانت هذه النظرية غير مقبولة فى نظره من الوجهة الحسابية والعملية : مادام كل جزء جميلا فالكل جميل ... كانت هذه قاعدة دفاعه وخطة مرافعاته . وكانت روحه المرحة تساعد على ذيوع شناعة خلقته ، حتى تعدوا الحقيقة بمراحل فظلموه ...

تخريج المدرسة لا يعنى بالمستقبل اكثر مما يعنى بالعواطف ، انه قد أدى واجبه وقطع مراحل الدراسة واندمج فى صفوف الرجال : أول ما يصطدم به الخريج بعد عناء الدرس هو الحب ! . . .

خلا القلب من هم الجغرافيا والتاريخ والحساب . وخلا الذهن من هم القانون الرومانى والاقتصاد والحجز على الاسهم والسندات . انن فى قلبه وذهنه فراغان فلتملأهما « جولييت » و « ليلى العامرية » و « كليوباترا » وغيرهن من مخلوقات الله الحسان . . .

واخذ يبحث عن الحب فدله احد اصحابه عن المنزل نمرة ١٩ فى «بنسيون» اوربا يقرانى ان اسميه . . . مالكم واسم « البنسيون » وهو تمه والحب لاعلاقة له بالقصور ولا بالاكواخ . والحب لاصلة له بالجوامع ولا بالكنائس ولا بالمواخير . الحب انى وجد هو الحب ! له قدسيته فى أقذر البيئات واحط المآوى والحانات . له جلاله وعظمته فى أحقر الشخصيات وأدنا الارواح والنفوس . الحب هو مرض ، هو جنون ، هو حمى ، هو شيء لم يدركه الاولون ولن يدركه الآخرون . . .

كانت الفتاة تسمى « ثروت » وكان اسمها فذا عجيبا ، ولغرابة الاسماء فى بعض الاحايين جاذبية تضيف الى مسائل العواطف نسبة معينة من العواطف . . . ماعهدنا ان « ثروت » اسم يطلق على الفتيات ولكن ما العمل واسمها «ثروت» ؟ ! .

* * *

نظر اليها الاستاذ نظرته البسيكولوجية . وسلط عليها أشعة فراسته فلاحظ انها تبدو طبيعية فى كل شيء . فهى لاتغرق فى المجاملة كما يغرق فيها غيرها من محترفات الحب ومرتزقة الاهواء . وهى لاتعنى بالحاضرين والذاهبين . ثم هى بين آونة وأخرى تصعد زفرة أو حسرة أو آهة . من أعماق النفس لا من الحلق . . ثم هى لاتعنى أقل عناية بتواليت الوجه ولا بأناقة الملبس . وكأنها بعد تعدد المقابلات حنت الى صداقته ووجدت فيه مالم تجده فى غيره من الرواد

وفى ليلة من الليالى اصطحب الاستاذ معه أخاه الاصغر ، ولم يكن صغيرا الحد الذى لايناسبه الاصطحاب وانما كان فى سن الشباب الناضج . فلما تم التعارف بينها وبينه

تدفقت الاستاذ بنظـــرة ازدراء رهيبة ثم همست فى اذنه قائلة:
يالها من سفسطة . !

قال الاستاذ بلهجة الحاكم : واذا جاء وحده . ؟

قالت : تكون بريئا من ذنبـــه ويكون بريئا من ذنبك . احترامك فرض مفروض على اخيك الاصغر وقد تعاونت للقضاء على هـــذا الاحســاس . ثم هبه يعلم فـان التجاهل يقوم مقام الجهل فهب انصرف فى الحال وخذه معك !.

❊ ❊ ❊

هـــذا الدرس الصغير وقـــعه وقعه المؤثر فى نفس صـــاحبنا فشعر بالخجل العادل المصحوب بالمنطق المعقول . وفى الزيارة التالية شكر لها نصيحتها فزادته شرحا بان قالت :

وهب أن اخاك هـــذا مال الى . وهبنى ملت اليه أنا الاخرى وعذرى واضح : فهو أصغر منك سنا وارشق قواما ، واجمل تنسيقا وتركيبا . هب ان الحب تمكن بيننا والحب لا يخضع لتقاليــد ولا لآداب ولا لوفاء أو ولاء . هب اننا اخلسنا خبايا وخفايا فى غفلتك وشاءت الظروف ان تكتشف الخبايا والخفايا . أى عداء تولده الغيرة وأى شقاء تنكب به الاسرة !!

قال لها : صدقت . . .

قالت : قل لاصدقائك اذن ان يحذروا ماوقعت فيه . قل لهم ان فتـــاة مجربة قد اصطدمت بمئات المآسى فى حياتها القصيرة من هذا النوع ومن هذا القبيل : ما دخلت امرأة بين أخ وأخ ، أو بين قريب وقريب . أو بـــين صديق وصديق ، الا أفســدت عدلا او ظلما بين الاخ واخيـــه ، والقريب وقريبه ، والصــديق وصديقه . . .

« المباذل من اصولها التستر فلا تعلنوا عنها ولا توجدوا لهـــا شهود العيان . . . »

قال لها : قبلة اعجاب ! . . .

قالت : خذها فلعل فيها شيئا من النبل والشرف وسعد هـــذه الادران . . .

❊ ❊ ❊

وفى ليلة أخرى طلبت « ثروت » الى صديقها الاستاذ أن يزورها نهارا ، واختارت أن تكون المقابلة وقت القيلولة أو قبل الغروب .

فلما شرع دم الغيرة في الصعود الى شفتيه وعينيه وصدغيه أطلت على وجهه لعلامة طيبة ساذجة وقالت :

« اسمع يا صبي فلسفة الليل . الليل من شأنه التهوّر والتزيين والتصنع والشراب وحب الظهور فأنت لا تظفر بحقيقة من تحب ليلا وانما تظفر بحقيقتها نهارا ، الليل حياة مزخرفة مسفة ، يودع فيه امثالنا وأمثالكم حياة الجسد والتفكير والتبصر ويهيمون في عالم هو أقرب لعوالم المسارح منه لعوالم الحقيقة . نحن وانتم نتنكر في الليل ونسفر في النهار ، فان شئت أن تعرف من أنا وان أعرف من أنت فواجهني في النور وحذار حذار ان تواجهني في الظلام » .

قال : لك هذا ...

قالت : اذن الى اللقاء في حماية الشمس ! ...

* * *

خرج الاستاذ بنظارته ، وياقته الامريكية ، وعصاه ، يهتز غرورا ويقول لنفسه : لقد أحبتني الفتاة « ومن حيث انها احبتني فيجب أن أفكر في خيرها جديا ..

« ومن حيث أنها في هذا الوسط فيجب انقاذها ..

واذ وصل الى هذه النقطة خطر له فجأة خاطر أسود فتوقف عن السير وقد اهتزت أعصابه وأخذ يتمتم كالمحموم :

« لعلها ابتكرت حكاية النهار لتتخلص مني في الليل ! ..

« ولعل العاشق ذا الحظوة هو بطل الظلام ! ...

وتقهقر خطوتين أو ثلاث خطوات على نية العودة اليها « لاجراء التحقيق » ولكنه عدل واستمر الى مسكنه وقد استولى عليه سوء الظن واخذ يناجي فراسته بخليط من المتناقضات ؟ فتارة هي سافلة منحطة ، وتارة هي تعسة كسيرة الجناح ، وحينا هي مخادعة مختالة ، وأحيانا هي مجنونة طائشة ، ومرة أخرى هي « بنت الهوى » ولا أمان لبنات الهوى ، ومرة أخرى هي فريسة القضاء والقدر والحظ المنكود ...

وظل في ملابسه حيث كانت الساعة العاشرة وبدأ النوم يلاعب أجفانه في الساعة الثالثة صباحا

ولا بد أن القارىء قد مرت عليه تجارب كهذه ، فلا داعي لذكر سخافات هواجس الارق وكشكول الخيال العجيب في مثل هذه الساعات . فلندع الاستاذ يقضي ساعات النوم القليلة قبل أن يحمل

محفظته الى المحكمة ولنتكلم عنه فقد نسينا أن نقدمه على حقيقته للقراء ..

❊ ❊ ❊

يذكرون عنه في طفولته من عهد الولادة الى عهد الفطام انه كان لا يعرف البكاء . وكان ترتيبه الثالث عند ما ولد ، فلما ترعرع قليلا كان فريسة أخويه الكبيرين ولا تزال في جسمه آثار اللطم والضرب والعاهات الصغيرة التي تخلفها عادة مشاجرات الاولاد . ولم ينعم الولد الصغير بحنان خاص أو عطف خاص أو حب خاص . بل كان في منزل أبويه «شيئا» لا بد من تربيته والسلام

والاسرة من بيت كبير وعيلة ضخمة الحسب عنيدة النسب . وكان من عادات الاسر الريفية في ذلك الوقت المأسوف عليه ان ترسل أولادها لمدارس القاهرة مستقرة في الريف مسقط الرأس ومصدر الرزق وعماد العصبية والحيثية . كانت الاسر في ذلك الوقت المأسوف عليه لا تعرف الانتقال ، والهجرن ، ومواسم الحصاد وجمع القطن ، ولا تعيش الا مع اتباعها من الفلاحين الزارعين .

وكان الخير كثيرا لم تبدده كهرباء العواصم ولا لياليها الساهرة ولا سهراتها الزاهرة ولا مدنيتها الساخرة الفاجرة . كان الاولاد في مدارس العاصمة يعيشون وحدهم عيشة استقلالية علمية لا يفسدها الدلال على الام ولا التجني على الاب الضعيف . وكانت عيشة من طبيعتها ان تكون خشنة غير ناعمة . واكثر ما يفسد الشبان في مستهل حياتهم ان تلحظهم النعومة بعناصرها المختلفة ؛ نعومة الامهات ، ونعومة الآباء . ونعومة الملبس ، ونعومة المأكل ؛ ونعومة المصروف الوفير .

كان الفتى بطل هذا الاستعراض يعيش مع اخويه كعيشة الجنود في الثكنات مع الفارق . وكان والد الثلاثة شديد الرقابة يلحظ أولاده في الشهر مرتين او ثلاث مرات . فيقوم بواجب الحنو وواجب الاعداد . ومن حسن حظ هذه الفرقة الصغيرة من تلاميذ المدارس ان قائدهم وهو اخوهم الاكبر كان قدوة كطالب للتعليم . دقيقا في مواظبته وفي مطالعته . والعجيب في مشاهدات هذه الحياة أن الاخ الاكبر « كالاصل » تطابقه النسخ المطبوعة على غراره . فان كان فاسدا تبعه اخوته في الفساد . وان كان صالحا تبعه اخوته في الصلاح .

والخلاصة أن ولدنا الصغير نشأ نشأة مدرسية «مضبوطة» من كل الوجوه . وكانت حلقات دراسته حلقات نجاح بارز أسمى بكثير من مرتبة « العادي » واقرب بكثير الى مرتبة النبوغ ...

غير ان الاخ الاكبر رغم عبقريته كتلميذ وكطالب كان فيما بعد قدوة غير حسنة في النسائيات . وهذا هو السر في ان استاذنا حين ترك المدرسة غدا عدو خيل السباق الى المنزل نمرة ١٩ في « البنسيون » الذي لم اشأ ان أسميه ...

***

مادمنا قد عدنا الى ذكر المنزل نمرة ١٩ فلنستأنف اخبار مقابلات « النهار » فيه ...

الساعة تدق الثالثة بعد الظهر

والاستاذ في محل يلدز منهمك في شراء بعض الحلوى يحملها هدية متواضعة لصديقة النهار . صديقة القيلولة او قبل الغروب!

وها هو يسرع بحمله الخفيف الى دار الحبيب . فاذا ما وصل لباب المسكن دق دقة أنيقة فانفتح الباب ...

السكون حقيقة مخيم والشمس ترسل اشعتها الى داخل الغرف ، وهذه «ثروت» تستقبل صديقها باسمة وتبادر فتأخذ هدية العاشق وتعطيه الثمن قبلة ... ثم تلتفت الى الشمس ضاحكة وهي تقول : الشمس مطهرة يا استاذ واشعتها تقتل الجراثيم

واذ تدخل غرفتها وتغلق وراءها الباب ترتمي على سريرها وتشير اليه بالجلوس على كرسي بجوار السرير ...

هل وصفت لك هذه الفتاة ايها القارىء ؟

انها سمراء اللون . والسمرة تختلط بقليل من الاصفرار الوديع .

شعرها الاسود الكثيف النامي الطويل تترك له حريته فيتدلى حيث يشاء بغير نظام ..

وجهها دقيق انيق التقاطيع ترتسم عليه الطفولة والسذاجة فتصبح في تحديد السن الصغيرة بغير الرجوع الى شهادة الميلاد ..

جسمها يستطاع حمله بسهولة وبغير عناء ..

اما عيناها ففيهما كل السحر وكل الجاذبية . لااستطيع ان اصفهما تماما وانما اقول بايجاز انهما من النوع « القزاز » ومن النوع الشفاف الذي يفضح ماوراءه وينم عما خلفه من النوع الذي يكتب ويقرأ وينطق بغير مداد وبغير لسان .

والاستاذ « شكرى . . » له في العيون تصاثد فهو خبير بالعيون . .
والفتاة على العموم صغيرة ، طفلة ، شيء يود العاشق أن يأكله . .
وبين ضفتي الشعر تبرز خصلة ثائرة عصبية لا تستقر على قرار ، فهي دائبة على مداعبة الجبهة بقوامها والعينين بطرفها . ورأس الفتاة يعاني من أحوالها الصبيانية كثيرا ، فهو دائما أبدا متحرك حركة عصبية ليحول بين خصلة الشعر والجبهة والعينين . .

هذه المخلوقة الغريبة تستقبل الاستاذ الولهان وعليها قميص عادي من نوع ما يرتديه الجنس اللطيف لنفسه ، وحده ، لا المعجبين ولا للعشاق . .

وقدماها حافيتان عاريتان . وهذه البودرة وهذا الاحمر لم يقوما بواجب استقبال الضيف العزيز .

يستعرض الشاب هذه المظاهر في نفسه وقد استلقت هي على الوسادة وسبحت في جو الافكار .

وطالت لحظة السكوت فحدق الاستاذ في عينيها واذا به يفاجأ بدمعة ! . .

— تبكين ؟ . .

— . . . . . .

— ثروت ! تبكين ؟ !

هذه دمعة أخرى . وهذه ثالثة ثم هي تخفي وجهها بين الوسادتين فيقترب بيده نحو وجهها فيلمس ماء الدموع !

والشاب عواطفي فهو يطبع على ثغرها المبلل قبلة ولا يتمالك أن يحكم قلبه الطيب فتتساقط على وجهها من عينيه قطرات الدموع . . واذ تحس الفتاة دموع الفتى تنهض مأخوذة وتهتف بصوت خافت :

— تبكي ؟ !
فيقول : نعم !
— ومن اجلي ؟
فيقول : نعم !
— ومن غير أن تعلم لم بكائي ؟
فيقول : نعم !
فتحدق آسفة ثم تقول : يالك من تعس ! !
ثم تتناول منديلها فتمسح دموعه بعطف وأسى

ثم بغتة تستوي جالسة في سريرها وتحدجه بنظرة ثائرة ثم تشرع في هذه الاسئلة :

ـ ما اسمي ؟

ـ ثروت ..

ـ كذب !... ماجنسيتي ؟

ـ مصرية ...

ـ كذب !...

وتمر فترة قصيرة من سكوت في نظر الفتى طويل ..

* * *

وتقفز الفتاة من سريرها وتتجه نحو الدولاب فتخرج ملفا فيه أوراق . ثم تعود الى سريرها وتخرج صورا فتوغرافية تحدق فيها ثم تعرضها عليه : «وهذه صورة أبي . وهذه صورة أمي .. وهذه صور اخوتي .. وهذه صورة منزلنا في « أرمينيا »

ويصيح « شكري » بدهشة قائلا : « ارمينيا »

فتضحك ضحكة عنيفة وتقول: نعم ارمينيا . ألم تفهم للآن اني ارمنية » ؟...

فيتمتم هامسا : ثروت !..

فتقول : ثروت !..

ثم تجهش بالبكاء وقد قبضت على ملف الاوراق ...

وتنتابها اذ ذاك حركة تشنجية ثم يستولي عليها فجأة طارىء جنوني فتطوق بذراعيها عنق «شكري» بشدة وقوة ثم تصيح فزعة مأخوذة وهي ترتعد ارتعادا واضحا : انقذني من الوحوش .. انهم ذبحوه !.. أتوسل اليك .أنقذني . جاء دوري . احمني من السكين !

وتظل عالقة بعنقه والفتى قد ارتبك ارتباكا ظاهرا فان تطوراتها السريعة المتتابعة لم تترك له الوقت الضروري لاستعادة رزانته . واذ يشعر بالبرودة وبالدموع وبالهلع لا يملك الا أن يبكي هو أيضا . ثم كأن الفتاة قد تعبت من جراء هذه الثورة العصبية والجسمية والذهنية . فهي تستكين وتضعف وتلقي برأسها على صدره وتغمض عينيها وينزورها نعاس غريب عجيب ...!

* * *

في مثل هذه المواقف الشاذة التي ليس لها مقدمات يشعر

الرجل منا بشعور الاطفال . في مثل هذه المواقف يتصل الرجل منا بالله وبالقدر فيستسلم !..

وشاب « كشكري » حديث العهد بالدنيا العملية ، قليل الخبرة بمآسي هذا الصنف من مخلوقات الله . لم يفعل شيئا .. يحدق ويقبل ، ويقبل ويحدق .. وظلت هذه مهمته حتى أخذت الفتاة تستيقظ أو تفيق ، ثم « غادرت » صدره الى سريرها فأسرع الى « الكولونيا » وأخذ يدنيها من فمها ويدلك وجهها وذراعيها حتى نظرت اليه نظرة هادئة وقالت : أشكرك ..

قال لها : كيف حالك الان ؟..

قالت : أحسن ..

قال : أتحتاجين الى طبيب ؟ ..

قالت : مطلقا .. كم الساعة ؟

قال : السادسة ...

قالت : اذن هيا . أسرع الى المكتب وأد واجبك وعد الى في القيلولة أو قبيل الغروب ..

قال : يستحيل علي أن اتركك على هذا الحال ..

قالت : أفعل ما أقوله ولا تناقش . ان حملي ثقيل . والمرأة التي يضحى لها الرجل من عمله وواجبه امرأة ان أحبت منه هذا العمل في البداية احتقرته في النهاية ... دعني حالا . انني أريد أن أعد عدتي لليل فاذهب ...

قال : أهذه حقا ارادتك ؟..

قالت : نعم وبلا تردد .

انما لاتنس الغد وأعدك بأن أكون صافية المزاج ...

والشاب لم يفق بعد من الدهشة فلا يسعه الا الانصراف ولكنها تستوقفه باسمة وتقول :

— ان العشاق يقبلون عند الانصراف فأين قبلتك ؟

فيعود اليها « منفذا الاوامر » ثم ينسحب بسكون فتغلق الباب وراءه وهي تقول :

« مسكين ... »

تخيلات الطريق

هذا هو البحر الخضم الذى يرتطم بأمواجه وتياراته العشاق ، والبحر فيه الصخر واللؤلؤ وفيه اللذة والخطر ..

يقول الاستاذ لنفسه :

« أولا : البنت متعلمة ناضجة الحسن تفهم الحياة أكثر منى ..

« ثانيا : انها من بيت طيب بدليل الصور الفوتوغرافية لابيها ولامها ولاخوتها ولمنزلها ..

« ثالثا : انها لاتزال زهرة يانعة لم تمكث طويلا فى أيدى قاطفى الزهور ..

« رابعا : انها ذات الام ودموع فلها سر أليم رهيب ..

« بناء عليه : هى جديرة بالحب رغم « عرقيتها الجغرافى » ورغم ظاهرها التعس .. »

وبعد أن يصل الاستاذ الى هذه النتيجة بعد ذلك التسلسل المنطقى البديع يعود فيقول لنفسه :

« أولا : انها « ارمنية » ...

« ثانيا : انها سقطت والسلام

وكم سقطت أخت لها من قبل لها أب أرقى من أبيها وأم أفضل من أمها ، واخوة أنبل من اخوتها ومنزل أكرم من منزلها ..

« ثالثا : ان الدموع ثروة النساء ..

« رابعا : مالى أنا وللادوار العصبية ، والنوبات التشنجية ، وهذه الحالات الجنونية ..

« بناء عليه : هى غير جديرة بالحب ، وأنا جدير بأن أتفرغ لعملى وواجبى ومستقبلى .. »

واذ يصل الى هذه النتيجة بعد ذلك التسلسل المنطقى البديع تدركه سيارة من سيارات الاجرة تقف فجأة وتطل منها « ثروت » فيرفع نظره اليها ببشاشة كبشاشة الاطفال فتقول له : كنت ذاهبة اليك فى المكتب لاعتذر اليك ولاكرر شكرى ولاذكرك بأن تبكر فى القيلولة أو قبل الغروب فلا تنس ...

واذ يحاول الرد عليها يجدها قد غابت بسرعة عن ناظريه .. وتزول من خاطره النتيجة الثانية بأسبابها وحيثياتها وتستقر الاولى فى الذهن ، وفى القلب ..



يستولي عليها طارىء جنوني فتطوق عنق شكري بشدة وقوة
وتصيح : انقذني من الوحوش ... انهم ذبحوه ...

في مكتب أحد كبار المحامين يشتغل « المتر شكري » كمحام تحت التمرين ، وصاحب المكتب محام بارع ليس فيه الا عيب واحد ، انه رجل كما يقول العامة « دغري » ... ولهذا كان صنف النساء من الزبائن لا يتمتع بالدلال اللازم في المكتب ، ولكن من عهد أن اشتغل به الاستاذ شكري المحامي الناشيء « المدردح » اختص بقضايا النساء وبمقابلة النساء ...

والمكتب له زبائن من كل الطبقات ، وبالاخص الطبقات الراقية ، وعلى هذا كان المحصول النسائي الراقي وفيرا ، من كل سن ومن كل فن .. والاستاذ شكري يتأثر بالقدوة الا عندما تخالف سليقته وطبيعته ، فهو أيضا « دغري » في عمله كاستاذه الكبير ، يؤديه أكمل الاداء ، ولكنه كان ظريفا خلابا مع السيدات في المكتب بحكم سليقته وطبيعته ، وكان سعره في هذه السوق رائجا ...

وكان من الممكن أن تنشأ عواطف وأن تتمكن عواطف ، وكان من الممكن ان يتخير المحامي الناشيء حبا راقيا ، أو زواجا راقيا ، ولكنه كان أسير الفتاة القاطنة في المنزل نمرة ١٩ .. ومن هنا تعرف شيئا من خلال وغريزة هذا المخلوق الغريب ، وأزيدك بيانا فأقول ان الشاب ديمقراطي متطرف ، وسترى في الحلقات التالية كيف تكونت عقيدته السياسية ضد الحكم وضد الحكومة وضد الاعتدال وكيف لعب دورا له قيمته في فترة وجيزة في خضم الحياة العامة

اذن كانت « ثروت » الساقطة فوق الجميع ، فوق الجمال الفاتن ، فوق الطهر المفروض ، فوق الحسب والنسب ، فوق الثروة والجاه ، فوق حاضر الشباب ومستقبله .

وأنت اذا استطعت أن تناجي دخيلته عن السر في هذا الشذوذ وفي هذا التعصب لاجابتك دخيلته اجابة حازمة جازمة : انه من أجل الدموع ومن أجل الالام ..

والشاب رغم مزاياه النفسية الروحية من أسرة كبيرة اسمها وحده رأس مال كبير ، ولكنه رغم ذلك كان بطبعه عدوا للارستقراطية ، وعدوا للنعيم ، وصديقا وفيا للبؤس وللشقاء ..

شئت أن تقبل هذا أم لم تقبله فنحن لا نداقع عن الفتى ولا نرسم لك المثل الاعلى مستمدا من شخصيته . وانما نرصد الواقع

ونحلل ناحية من نواحي مخلوق من مخلوقات الله ..

وها هو يستقبل في غرفة عمله بالمكتب نماذج الجمال ، ونماذج الحرير الناعم ، ونماذج الماس الخاطف للابصار، ونماذج التهذيب والثقافة النسائية ؛ ولكنه رغم كل هذه المغريات والمعروضات لا ينسى انموذجه الوحيد : قاطنة المنزل نمرة ١٩

مثل هذه الحالة العقلية الشاذة يزيدها شذوذا الاعتداد بالنفس . ومحامينا الناشيء كان معتدا بنفسه لدرجة تقرب من درجة الغرور . فكان من المستحيل ان تضمن له الشفاء . وكان من المحتم ان تتركه لمشيئة الاقدار

***

لاتعجل تفاصيل المقابلات النهارية ، فقد وعدت الفتاة الغامضة صديقها في اليوم التالي ان تكون صافية المزاج . وقد برت بوعدها فكانت مقابلة ثم كانت مقابلات . ولا يعنينا ان ندون هنا التافه من امرها وامره وانما يعنينا أن نذكرك بتلك المفاجأة الحادثة التي بدأت بدور عصبي عنيف ثم انتهت بغفوة او اغماءة على الصدر . ولعلك تذكر ايها القاريء ان السبب الظاهر كان عرضها الصور الفوتوغرافية على صديقها وبالاخص عندما كشفت له الغطاء عن جنسيتها فعرف انها « أرمنية » . وعن اسمها فعرف انه ليس «ثروت» وقد فاتنا أن نذكر لك انها لفظت اسم « ثروت » في الوقت الذي كانت تخرج فيه من ملف اوراقها وتذكاراتها صورة فوتوغرافية لضابط وسيم جميل . وشاءت النوبة العصبية يدها عن هذه الصورة الفوتوغرافية فبقيت في مكانها ثم كان ما كان ..

تاريخ ..

« ج . ابيكيان » سري من سراة الارمن في القسطنطينية . والارمن في استامبول لهم مكانة اظن ان دعامتها الاولى هي المال ثم الثقافة . وللرجل بنت وحيدة واخوة أشداء اقوياء بحسب والدهم وبحيثياتهم في المجتمع . والفتاة الوحيدة كانت مدللة ، عني والدها بتعليمها وبالطواف بها في عواصم أوربا . وكان الرجل كثير الحب لها يصطحبها في غدواته وروحاته وزياراته . وكان لايغفل عن زيارة السفارات والقنصليات التركية في البلاد التي

يحل بها حسب المادة المتبعة والواجب المتبع . وفى « باريس » تعرفت الاسرة بضابط تركى يغلب على الظن ان له اتصالا بدم مصرى . والسن تجذب اليها السن وخصوصا فى بلاد الغربة بين المواطنين . ونقول لك باختصار ان نوعا من العاطفة « الطفلية » الابجدية نشأ بين الفتى التركى والفتاة الارمنية . والنفس الصغيرة من كل جنس ومن كل لون ومن كل بيئة حين تطالع فى كتيب الحب لاول مرة الفه ، وباءه وتاءه تحتفر هذه الاحرف فى قلبها مخبأها فيختلط بها لحم القلب ودمه حتى تصبح جزءا طبيعيا من اجزائه . الم تلعب فى نشأتك مع صبية صغيرة لعبا من العاب الاطفال فى شوارع الحى وحاراته ثم نبت بينك وبين الصبية نبات صغير لا سمه ماشئت ان تسميه : صداقة . ميلا . استلطافا . عشرة . . ثم تركت الحى صبيا وافترقتما ثم مرت الايام والشهور والسنون ثم مر جيل ثم شاءت صدف الاقدار ان تجمع بينكما فى تلفون ، أو فى طريق ، أو فى مكان وقد كبرتما وخبرتما الدنيا ولكل منكما تاريخ ؟

الم يحصل لك هذا ؟ ثم الم تشعر عند المقابلة ان الذكريات تدفع بالذكريات . وان ذكرى الصبى تكشف رويدا رويدا عن النبات الصغير فاذا به ينمو ويترعرع ويشتد فى لحظة . ثم اذا بثمرته تصعد من القلب الى الشفتين فترتسم قبلة !! . .

ثم اذا بالقبلة تلد عاطفة . ثم اذا بالعاطفة تلد حبا !!

هذا ما اسميه الحب المبعوث . ثم من العدل ان نعترف بأن حب الصغار هو أرقى أنواع الحب وأصدق انواع الحب وانبل انواع الحب ! . .

ولم تكن فتاتنا الارمنية ولا صديقها التركى صغيرين لحد التصوير الذى صورته لك فى استشهادى . وانما اود أن أقول ان الحب بينهما طرق الباب فى «باريس» ثم مرت الايام والشهور فلما تلاقيا فى «الاستانة» . انفتح الباب واستقبل الضيف العزيز بكل ترحاب وبكل سرور . .

***

وشهدت متنزهات «استامبول» وفردوس استامبول وجنان استامبول مشاهد هيام تستحق التحليل والتسجيل . ولكنى اخشى ان ينسى القراء بطلهم المصرى فى هذه القصة فانا استميحهم عذرا وامر على الحوادث مرا سريعا . .

دق ناقوس الدمار والخراب فى « تركيا » وانفجرت قنبلة الرعب والذعر فاذا بها تعلن اشتراكها فى الجريمة الانسانية الكبرى : الحرب العظمى ! . .

لم تكن علاقة الفتاة بالفتى مهددة فقط بتنافر الدم ، وتناقض الدين ، ولم تكن مشكلة الارتباط الشرعى الطاهر بينهما هى مشكلة هذين العنصرين ، فهما من الذين يرون ان الحب هو الدم وهو الجنسية وهو الدين . وانما كانت النكبة النكباء انها أرمنية وهو تركى ! . . .

والعداوة بين العنصرين قديمة التاريخ . . .

وزادتها الحرب تمكنا وتاصلا فاخذت بالفعل مظهرا من مظاهر سفك الدماء . . .

وحين انذر الفتى الضابط بالاستعداد لتلبية نداء الوطن فى مختلف الميادين . وحين تحقق لديه ان ساعة الفراق أوشكت ان تدق دقاتها الاليمة . ارتفع فى مجرى قلبه وقلب صديقته منسوب الحب وفاض . والحب من شأنه الشجاعة والاستهتار ومن شأنه رغم كل احتياط أن يسفر وان يتجلى . . .

وكشفت العين الارمنية الغدارة الجبارة المتطايرة الشرر الحاقدة ملتقى العاشقين فلم تغمض الجفن بل اندلع منها لهيب النار . . .

وفى عصر من « عصارى » اللقاء وقد اخذ قرص الشمس يودع النهار هرولت الفتاة الى مكان اللقاء فى الضواحى الحنونة الحساسة التى تشمل العشاق بحمايتها . وتحول بينهم وبين الانظار . . . هرولت وكانت قد اعتادت ان تظفر بصديقها فى الانتظار . فراعها أول ماراعها انه ليس هناك . . . هتفت فلم يهتف احد . . . وتوارى قرص الشمس فقصدت الى شجرة اعتادت أن تركن الى جذعها هى والصديق المتخلف . فاذا بها تصطدم بشىء فتسقط على وجهها . ولكن لم تلمس شفتاها الارض وانما لمستا . . . لمستا شفتى الضابط المذبوح !

وكانت قبلة الوداع ممزوجة بالدم الاحمر القانى ومصحوبة بصرخة هى أشقى ماعرف التاريخ .

***

فى الغرفة عينها
وفى القيلولة وقبل الغروب

وقد جلست الفتاة على ركبتي الاستاذ وطوقت عنقه بذراعيها تبكي بكاء مرا هادئا ذليلا وقدحرقت أنفاسها وجهه بنارها وسعيرها .

كانت تروى له الراقعة التي رويناها لك من أول «ج.ابيكيان» حتى قبلة الوداع

وكانت دموعه هو تجاري دموعها هي

وخيم سكون عميق

وقطع الاستاذ السكون بقوله: كفى وحسبك !

قالت : وماذا بقى ؟ قال : لا شيء

قالت : أعرفت من كانت الفتاة الارمنية ؟

قال : لعلها أنت ! قالت نعم !

قال : ومن كان الضابط المسكين ؟

قالت : كان «ثروت»

هنا فهم الاستاذ انها لم تحمل من ذكريات الذبيح الا رسمه واسمه ! ..

وهنا أدرك لم انتهت مأساة التشنج الاولى في أول مقابلة بقولها : «انهم ذبحوه . جاء دوري احمني من السكين !»

قال وقد لمعت عيناه لمعة البطولة والمروءة « هل لاتزال تطاردك السكين ؟

قالت : بالله لا تذكرني بتاريخ المطاردة وأهوالها وشقائها . كانت نهايتها هذه البؤرة وهذه المقبرة !

قال : ان في مجال الاصلاح لمتسعا للجميع ؟ ..

قالت : هيهات ! ..

قال : عديني .

قالت : اني لا أعد . اني نذرت نفسي للشقاء وللدموع ! ..

قال : اني أعشق دموعك . فهيا هيا نستروح في الهواء الطلق ونحاول النسيان

***

وكانت نزهة مسائية لعب أكثر أدوارها الصمت الطويل والتفكير الطويل ..

وامتازت بظاهرة ادنى وصفها أنها عفيفة

ولعل الذكريات الاليمة والحوادث العنيفة ، والموقف الجسدي الذي تمخضت عنه هذه الذكريات والحوادث ـ لعل هذه العناصر

الثلاثة قد رجعت بالفتى والفتاة الى العهد العذرى الخيالى البرىء .

ونحن الان فى أواخر سنة ١٩١٨

والقاهرة وضواحيها مزدحمة بالعساكر الانكليزيين والاوستراليين وغريب أن يرد ذكرهم فى هذه اللحظة

سلوا «ثروت» المسكينة فهى سبب هذه المفارقات ..

سلوها : لماذا تضطرب حين تلمح وجها «اوستراليا» ؟

فهى تجفل فجاة وتلتصق بصديقها التصاقا وعيناها زائغتان فزعتان ..

سلوها : لماذا تقترح على صديقها بالحاح ان يبعد بها عن وجوه وسحن «الاوستراليين» ؟

لم يجد الإستاذ فى أول الامر ما يلفت النظر من هذه الناحية .

فهو نفسه عانى كثيرا من رذالة الاستراليين وتحكك الاوستراليين وتعدى «الاوستراليين» ولئن أحس «الرجل» بالاشمئزاز منهم «فالمرأة» اولى بهذا الاحساس ..

ولكنها بالغت فى الجزع . فقال لها :

ـ اتكرهين الاستراليين ؟

قالت : أخشاهم ..

قال : ولهذا الحد؟

قالت : نعم ..

قال : ولم ؟ خبريني !

قالت : لم يأت الاوان ..

* * *

عند ما يكشف الرجل العاشق فى المرأة المعشوقة ـ وخصوصا من هذا الصنف ـ بطريق الصدفة أو بحكم المعاشرة الطويلة ، خلة نبيلة أو تاريخا حزينا ، أو ناحية مظلمة ، تنبعث من أقصى نفسه عواطف طيبة فياضة ..

«شكرى» محا من ذهنه نهائيا صورة المرأة قاطنة «البنسيون» بالمنزل رقم ١٩

محا من ذهنه نهائيا صورة «الليل» وانطبعت فيه صورة النهار : « فى القيلولة أو قبل الغروب» ..

أو قل باختصار محا من ذهنه صورة «ثروت» وأحل محلها صورة الفتاة الارمنية كريمة «ج . ابيكيان»

وخريج المدرسة فى مستهل حياته «التجريبية» فى هذه الدنيا المتلاطمة الامواج يعتريه ويعترى زملاءه واقرانه فى السن وفى التجربة نوع من حمى الخيال والفلسفة الساذجة والمشاعر الانسانية .

هذا «المصلح الاجتماعى» الصغير توكل على الله وصمم أن ينتشل الفتاة الضائعة ..

ها هو يقرأ معها الجرائد والمجلات والكتب ويناقشها فى علم النفس وفى السياسة وينتقل بها من بحث فنى ، الى بحث صناعى ، الى بحث أدبى . فاذا سألته : لم هذا العناء لا اجابك : أريد أن أبعث استعدادها من القبر الذى دفن فيه ..

وها هو يزج بها فى اوساط راقية فيطوف معها الحفلات الخيرية والاجتماعية الادبية العلمية . فاذا سألته : ماذا ترمى بهذا ؟؟ أجابك :

— اريد أن أذكرها بوسطها الماضى وابعدها عن وسطها الحاضر ..

ثم هاهو فى ذات يوم من الايام يفاجئها بهذا الاقتراح الطريف : ان تمضى معه اسبوعا فى الريف ؟

فى الريف

من العدل أن نقرر أن الفتى نجح نجاحا ما فى اساليبه الاصلاحية هذه . لقد اخذ رونق الفتاة « النظيفة » يسطع على وجهها واساريرها واخذ يسود حركاتها واحوالها واخذ يطارد ظلام « البنسيون » الذى لم اشأ أن اسميه ..

وفى عزبة من عزب الريف نزل الصديقان فى ضيافة احد اقارب الاستاذ الاعزب . فترك لهما العزبة لينعما منفردين لا يعكر صفو وحدتهما مخلوق ..

ويا للدهشة !!

أن « ثروت » الماجنة طريدة العيلة ربة منزل لاتجارى : تجيد الطهى والكى وقد حملت ادواتها الصغيرة ونسيجها تصنع « جرسى » لصديقها العزيز ..

وها هى تجمع نساء القرية فتجرى عليهن الاحسان . وقد

سحرتهن سحراً اخاذاً بظرفها ودعتها . فهن عند الحاج لايقسمن الا باسمها ولا يحتكمن الا لحكمها وأمرها ..

وها قد تطورت « ثروت » الماجنة فهي في الصباح الندى ، وهي في الليل البلبل الفرد . وهي النشيطة المنتشة الصحيحة وهي في أسبوع الريف رمز السعادة في كل حال !

ولما دنا موعد الرحيل بكت الكاد الامر وكانت ساعة السفر ساعة النواح . وقد تقاطر نساء القرية يودعنها بالدموع وبالدعوات الطيبات ؟ ..

وفي القطار همس « شكرى » في أذنها :

— أسعيدة أنت ؟

— .. لدرجة الخوف . دعني أشكرك ؟

ثم أخذت تقبل يديه من شدة السرور وتقاطرت من عينيها بعض الدموع !

ربما ...

ان ذكرى الرحلة الريفية كانت أبداً منطبعة في ذهن هذه المرأة الصغيرة . وكان يلذ لصديقنا « شكرى » أن يسمع عبارات الاعجاب برحلة الريف من فمها الانيق . ولكن المسألة لم تكن في نظر « ثروت » مسألة ذكرى واعجاب فقط ، بل كانت ابعد مرمى ، وأدق مغزى ...

كانت تتكلم عن الريف بحماسة غامضة . وكانت تسائله عن عزبة والده في الريف بنزق وفرح ثم تعود وتغمض عين الاسى بذل ومسكنة وحسرة ؟ !

من العسير على الكاتب القدير ان يحلل هذا الطائف الطارئ على خاطر الفتاة . وبقدر ما تملك كفاءتنا الكتابية في التحليل نحاول هنا ان نفرض عدة فروض : هل كانت الفتاة ترهب شيئاً رهيباً في القاهرة فهي تذكر الريف وتحن الى الريف ؟ ربما ...

هل بعث الريف من ماضيها شخصية الفتاة الصغيرة الكريمة النقية العاشقة فودت ان تعود سيرتها الاولى ووجدت من نفسها كريمة « ج . ابيكيان » ومن الاستاذ الضابط ثروت ؟ ! ربما ...

هل خطر لها خاطر الزواج من « شكرى » ولكنها استدركته

فقاست البعد بين مستواهاالحاضر ومستواها الحاضر ؟ ولمست بيدها الباب الفولاذى الضخم الذى يحجب بين دنياها المفتوحة وبيته المصون المحروس ؟ ربما . .

من أتعس الخواطر التى تمر على أذهان هذا الصنف من فرائس الحياة ان يفكرن فى الزواج من عاشق أو من محب ولهان . ولذلك يمر الخاطر بسرعة البرق وتمحوه آية الليل ؟ . . .

آية الليل ! ؟

آية الليل عند صاحبتنا « ثروت » وقد ان أوان الافصاح والايضاح : كان ضابطا استراليا خشنا يقتحم بابها لافى « القيلولة او قبل الغروب » كما كان يفعل « المتر شكرى » وانما فى الليل . .

و « شكرى » المحب الفيلسوف المصلح عاشق الدموع كان من صنف العشاق الذين يحترمون الخصوصيات ويقدسون الخصوصيات والذين يأنفون أن يتجسسوا او يتحروا او يفاجئوا . وهذه ناحية من نواحى الحب تستحق هى الاخرى التحليل : ان العاشق الذى لا يتجسس ولا يفاجىء ولا يبحث لا يفعل ذلك عن غفلة او نبل او كرم اخلاق ، وانما هو يشفق أن يبحث . . فيكتشف . . . فيتألم فيثور . . فتنقطع علاقة الحب ! ؟

لذلك هو يغمض العين متعمدا ، ويسد الاذن متعمدا . وان كان احساسه الحساس يقوم مقام العين والاذن سواء بسواء

حدس العاشق لا يخطىء . وانما قلبه الطيب الفياض بالحب يطغى على عقله وعلى بصره فهو يغفل او يتغافل . ويعمى او يتعامى . ويتعقد موقفه ويصعب ان كان عشقه من نوع هذا العشق . ولم يكن يملك بوسائله حقوق العشاق المستأثرين . . .

او بعبارة أصرح . هل يتولى « شكرى » الضعيف الموارد الانفاق ! ؟ لئن كان يفعل كان صاحب السلطان على كل النواحى وان كان لا يفعل فبأى حق يتلصص ! ؟

هذا هو العذاب بعينه : محب محبوب ولكن غير قادر !

اذن عليه أن يحسن الظن وان يقبل المبررات وهو صاغر ، فان ثارت كرامته ونخوته وجب عليه أن يكتم حبه ، وأن يسحق قلبه ، وان ينسحب من الميدان

بطل الظلام ! . .

و « أروت » هـذه ماذا كانت مع بطل الظلام ؟

ظفر بها فى غير مصر فاحبهـا ومن حق كل مخلوق ان يحب .. التقطهـا من الدنيـا شريدة . طريدة . منكوبة . فظللها بحمايته ورعايته . وطاف بها فى كل مكان به طاف . ووقعت فى مخالب المرض مرات فكافح بمروءتـه ونخوته مخالب المرض وانقذها مرات . وبكى لها وبكت له فأحبها عشقا . واحبته وفاء . والبنت من اصل طيب فهى لاتغدر وهى لا تتنكر للاوفياء . . .

حتى اذا هبطا مصر عاشرتـه وساكنته ، ولكنه انتدب لمهمة عسكرية فى غير مصر فودعها على ان يعود ، انتهت الحرب او لـم تنته . فقرت بالمنزل رقم ١٩ فى مسكن انيق . . .

وبرز « شكرى » فى نهـاية فترة الغياب فاحبته الفتاة ، ثم عاد الضابط الاوسترالى فوجدت نفسها بين نارين : نار الحب . ونار الوفاء ! . .

افهمت كيف قسمت بينهما قسمة عادلة فحفظت لصاحبنـا وقت القيلولة او قبل الغروب . وحفظت لصاحبنا الاخـر وقت الظـلام ؟ . .

افهمت كيف كانت تفزع لرؤية الاوستراليـين وذكـرى الاوستراليين وكيف كانت تسأل : اتكرههم ؟ فتجيب : أخشاهم ؟

أفهمت كيف نعمت برحلة الريف وسعدت برحلة الريف وكيف لمحت بذل وانكسار الى امنية الاستقرار بالريف ؟

ويل المرأة الطيبـة ان احبت غراما ـ واحبت اكراما . . .

ويلها ويلهـا ان اعطت لهـذا قلبهـا ـ ولذاك ضـميرها ووجدانها . . .

ويلها ويلها من معـركة القلب الحساس ـ مع النفس الحساسة أيهما تقتل : اهى العاطفة ـ ام الواجب ؟

أيهما تقصى : اهو المحبوب ـ ام المنقذ ؟

يقول بعض المتطرفين فى اصول الهوى ان الموقف لايحتمل التردد فالحب اقوى المشاعر . وهـو يكتسح ماعداه ويتغلب على سـواه ! . . .

وعندى ان البت برأى غـير معصوم من الخطأ . عنـدى أن

المسئلة نسبية يرجع الحكم فيها الى استعداد المرأة وكمالها او نقصها ، وعند ما اقول الكمال او النقص انما احصره فى دائرة ضيقة . وفى المرأة الساقطة كمال وفيها نقص . فيها ناحية مرذولة بحكمها حكم سواها . وفيها ناحية طيبة ، جديرة بالاجلال على كل حال ...

المرأة فى هذا الموقف جد تواقة الى الابقاء على الخصمين المتنازعين والمغرمين المتنافسين . وهى وشأنها وسرها فى توزيع الحب على هذا والوفاء على ذاك ...

دعنى من الحكم العام الذى قد تراه والذى قد لا اراه . انى انتشلت وانقذ نفسى من هذا الحكم النفسانى فاقول ان « ثروت » كانت عادلة ، فهى لاتود ان تضحى بهذا ولا ترد ان تضحى بذاك ؟ !

ولكن ما العمل اذا كشف احد المتبارزين موقع خصمه ومزاحمه ؟ ما العمل اذا تصادما وارتفع الستار ؟ ! ..

ما العمل اذا طلب اليها بلهجة الحزم والجزم أن تختار لا

***

وقد تصادم العاشقان فوقعت الفتاة فى الفخ ..

وتخلى كل منهما عنها ...

وفترة تخلى العشاق فترة أليمة على المشاق وعلى المشوقين ...

والفتاة فيها شىء من الكبرياء فصمدت للصدمة حتى تنكر وحتى تبت ؟

ومن حق هذا الضابط أن يثور ، فهو رجل بمعنى الكلمة ، ضحى لها وانفق عليها وحماها ورعاها . ففى الموقف عنصر عنيف من عناصر الجحود ...

وقلنا فيما مضى ان الحب هو حمى ، وان الحب هو جنون . وهل يرضيه أن يعلم بأن الفتاة لا تجحده ولا تتنكر له ، مادامت لا تحبه ؟

والمحب انانى : يريد ان يستولى على القلب والجسم والعقل والذهن والنفس والحراس جميعا . ويأنف ان يظفر بنصيب وأن يظفر غيره بنصيب ...

المحب يمقت الشركة ويأباها . . .

ولئن قبل الشركة فأين تكون رجولته ؟

أضف الى عناصر هذه النار المشتعلة فى صدره أنه ضابط . أنه جندى وعسكرى . ولرجال الجندية والعسكرية اعتزاز بالكرامة لا يدانيه اعتزاز . الشرف العسكرى عنصر يمتزج بكل دور من أدوار

حياتهم ، في ميادين الحرب كما في ميادين الحب ، اذن لابد من موقعة فاصلة فلننتظر كيف تكون . .

خذلان . . .

اما فتانا «شكري» فكانت صدمته لاتقل عن صدمة الضابط عنفا وقسوة ، هو يجهل التفاصيل ويعلم فقط أنه كان مخدوعا وأنها كانت ولا تزال تحب سواه

اذن واخجلتاه من زيارة القيلولة او قبل الغروب !

واخجلتاه من الدموع الجارية على وجهه وعلى صدره !

واخجلتاه من رحلة الريف وهناء رحلة الريف !

واخجلتاه من ذلك الخيال الراقي الذي رسمه في ذهنه للفتاة المتمسة !

ثم واحسرتاه على تفويته للفرص التي ولت وادبرت . . .

واحسرتاه على أنه زل وسقط في أحضان فتاة ساقطة . . .

اذن سحقا للحب الراقي وللحب الوضيع . . .

ولكنه يحب ! . . .

اذن فليفكر طويلا ، وليبك بكاء ممزوجا بالخجل من البكاء ! . . .

على انه وسط هذه اللعنات يراجع ضميره فيقول : لاشك انها تمسة منكوبة ، ولئن كانت تحب سواه فهل يمكن أن يكون الحب محل مؤاخذة أو يمكن أن يكون جرما وجريرة ؟ !

وبأي حق يطالبها بقلبها . وماهو الثمن الذي اداه ؟ !

اما يرضيه أنها ترتضيه ؟ . .

انها ظريفة لطيفة لاتكرهه ، وانها تسمح له بأن يتلقى الدموع وأن يتلقى الاسرار ؟ !

ولكنه يحب !

والحب اناني . .

فلم تخدعه ، ولم تغرر به ، ولم تستهويه ؟ !

الانسحاب هو نعم الجواب . .

وليقنع بالتجربة الاولى في عالم الغرام . .

لياخذ منها عظة ودرسا . .

ولكن نقطة واحدة تمس رجولته ، منافسه من جيش الاحتلال أو من جنس جيش الاحتلال ؛ في الموقف عنصر من عناصر الجبن والتقهقر ، فتظن الفتاة ان الانسحاب هو بمثابة فرار ! ؟

لا !

اذن فليتطور هذا الخذلان المواطفى بالنعرة الوطنية السياسية ، وليبلغ الفتى بشره بذرة الثورة ضد غاصبي وطنه، وغاصبي محبوبته ، ولتنبت هذه البذرة نباتها ، ولترسل شجرها باغصان وفروع تصلح فيما بعد وقوداً ونارا ! ! !

***

ومرت أيام وليال والفتى يقتحم الاوساط السياسية في بلده، وكانت ثائرة لقضية الوطن ، وكان من فرط ثورته لا يروقه الاعتدال ولا اللين ولا المرونة ، بل كان داعية من دعاة التطرف الذين لقبهم مواطنوهم بالخياليين المجانين ! ! !

وكان استعداده الذى مهدنا له في الفصول الاولى يناسبه هذا التطرف بعد هذه اللطمة ، بحيث كانت فتيلا اشعل القنبلة الدفينة في أحشائه فانفجرت ودوت دويا . . .

وأطلت سنة ١٩١٩ بوجهها الامين على مصر البائسة ، وكانت قد اكتوت بنار السلطة العسكرية من مصادرة مواطنيه الآدميين وسوقهم قبل ذلك الى ميادين الردى ، ومن مصادرة أرزاقهم بأبخس الاثمان .

ووجد الفتى من هذا الخضم السياسي الذى غمره دمار فيه من آلامه نوعا ما ، وان كانت فترات القيلولة او قبل الغروب تفترس قلبه كلما مرت الذكرى وتجلت الخواطر

هذه مواقف الثلاثة شرحناها وحللناها بايجاز وغموض

... ...
... ...

ترجيح ! . . .

في الساعة السابعة من مساء يوم من أيام فبراير سنة ١٩١٩ دخل «عم عبد الله» فراش المكتب على الاستاذ « شكرى » فقال له : أن سيدة بالباب !

ورفع « شكرى » رأسه من الدوسيه الذى يحدق فيه واذن بالدخول بغير اكتراث

الزائرة فتاة شاحبة يلوح على وجهها شيء من الاصفرار . واصفرار الآلام او المرض نوع بديع من أنواع الجاذبية والجمال

تقدمت الزائرة بخطوات مضطربة مرتبكة ، فنهض الفتى مهتزا يستقبلها بأدب وشجن ثم همس قائلا :

ــ ثروت ؟
أجابت ببرود : هي أنا . . .
قال : تفضلي . . .
قالت : عندي حديث طويل أو قصير ، والمكتب لايناسبه
قال بدهشة : انخرج سويا ؟ !
قالت : ممكن
قال : اذن اجلسي وانتظري قليلا
وأتم « شكري » عمله ثم استاذن أستاذه واشار اليها بأن تسبقه على الباب ثم لحق بها وركبا مركبة صامتين والسائق يسوق الى الامام وهو لايسال وهما لا يرشدان
وتنبهت الفتاة قبل ان يتنبه الفتى فقالت : الى أين ؟
قال بضعف : الى حيث تشائين
قالت : اقترح أن نذهب الى حلوان
قال : أمرك . . .
وأمر السائق بأن يتجه الى باب اللوق
وركبا القطار ووصلا الى حلوان وسارا على القدمين حتى ظفرا بمكان خال في قهوة خالية من الناس فجلسا
قالت بلهجة الجد : اني جئت انذرك :
فقال بلهجة التهكم : مشفقة أم كارهة ؟
قالت : بل مشفقة . . .
قال : علي أم عليه ؟
قالت بلهجة صادقة صريحة : عليكما معا !
قال : اذن نحن شريكان ؟
قالت باللهجة عينها : نعم !
قال : أمقت الشركة ، وأرفض الانذار ! ! !

***

سكتت الفتاة هنيهة ثم قالت : اريد أن أشرب خمرا
قال : أن الخمر مفسدة
قالت : ولكنها عندي تبعث أصدق الاحساسات وأصدق الاقوال ، واريد أن أفضي اليك بأشياء صادقة ورهيبة !
قال : ليكن
وأمر لها بالشراب فشربت مثنى وثلاث ورباع . . .
قالت : أسقطت في نظرك نهائيا ؟

قال : لا الومك ، وانما سقطت انا في نظر نفسي

قالت : اذن انمحى كل تاريخي معك من ذهنك ؟

قال : ليست لي عليك حقوق . . .

هنا اعتدلت في جلستها والقت بالكرب النارية وقالت : اسمع يا « شكري » ! اتذكر جزعي من رؤية الاوستراليين؟ اتذكر قولي انني لا اكرههم بل اخشاهم ؟ !

قال : اذكر

قالت : اذن فاعلم انني جئت انذرك . انني اخشى عليك !

قال : اطمئني . لقد انسحبت فتمتعي

وكأنها اعتبرت هذه العبارة اهانة فانتصبت كاللبوة وزأرت : دنيء !! أظننت أنني جئت أستميحك عذراً لانني أحب وأرجو منك ان تخلي الطريق . دنيء ! !

قال مستخفاً : اشكرك على هذه التحية

قالت : اذن لن يكون الحديث بيننا طويلا . كلمة واحدة او كلمتين : احذر الضابط !

قال : كم أود أن أكون أول ضحية . . .

قالت : وعلى مذبحي ؟

قال : كلا ! بل على مذبح بلادي !

قالت وقد أطلت من عينيها الذابلتين الدموع :

ــ أنا الساقطة في نظرك ونظره ونظر الناس ونظر ابوي واخوتي وأسرتي وعشيرتي من قبل . لست آسف على شيء ، انما أنا امرأة عنصري نبيل ، وقد جئت أؤدي واجبا فقد تكون هذه آخر مقابلة بيني وبينك . أحبك وأحب الرجل ، أحبك ولم تقدم لي معونة ولم تبذل ولم تضح ، وأحبه لانه فعل كل هذا . صدقت أم لم تصدق فلست أطمع في استئناف العلاقة ؛ وتستطيع أن تستنتج ما في قلبي ونبع من ضميري ووجداني ، وكم حاولت كبريائي أن تصدني عن هذه المقابلة وعن هذا التصريح ، وقد نجحت مرارا ولكنها فشلت هذه المرة . لاني امرأة منحوسة ونحسي ينصب على رؤوس عشاقي ولاني اخشى أن يجري عليك ما جرى على « ثروت » وأن أقبلك انت أيضا قبلة الوداع ! . . .

نطقت بهذه العبارات بروح وحماسة ؛ وهبطت هذه العبارات بردا وسلاما على قلب الفتى المتقد بالنار ، فهدأ واستراح وانتزع يدها وطبع عليها قبلة

والمشتاق الاطفال بأسرهم بسرعة البرق الكلام اللين المصوغ في قالب الاعتذار او قالب الايضاح والبيان . وكان « شكرى » أراد ان يستمتع بتفاصيل هذا النوع فكشفت له بتدفق عما يشاء . وانتهت المقابلة على احسن مايكون . وقد عاد بها الى القاهرة مزهوا فخورا لانه استماد القلب واستعاد كرامة المشتاق ! . . .

ولكن بقى فى الظلام شبح التهديد . أما هو فكان لايابه ولا يكترث ، وأما هى فكانت تحميه بالقبل المتوالية وتصف له وسائل التحصن والحذر وعيناها مغمضتان بالدموع !

سنسافر معا . . .

فى ساعة القيلولة اوساعة قبل الغروب دق جرس « البنسيون » فهرولت « ثروت » بنفسها الى الباب ظانة ان الزائر هو « شكرى »

وما فتحت الباب حتى وجدت امامها الضابط !

حياها فردت التحية

واتجه الى غرفتها بدون استئذان كما اعتاد أن يتجه !

فسارت وراءه

قال لها : كيف حال المصرى ؟!

قالت : لم اره غير مرة واحدة

قال : وهل لاتزالين تحبينه ؟

اجابت : يكفيك ان اقول اننى لا ازال احبك

قال : شكرا . هونت على مهمتى !

قالت : اية مهمة ؟

قال : سنسافر معا بعد يومين اثنين !

قالت : الى اين ؟

قال : الى وطنى . الى اوستراليا

قالت : اجاد انت ؟

قال : كل الجد !

وجمت ولكنها تمالكت ثم قالت : ولكن كيف استطيع أن اعد حوائجى فى هذا الوقت القصير ؟

قال : أما حوائجك فلا يحتاج اعدادها الى وقت طويل ، وأما الباسبورت فدعى أمره لى

قالت : ولم هذا السفر المفاجىء ؟ .

قال : صدر الامر بتسريح الفرقة !

قالت : دعني أفكر

قال : أتترددين ؟

قالت : وأي غرابة في هذا ؟ من مصر الى أوستراليا ، أليس الامر يحتاج للتفكير ؟

قال : عجيب ! ماكان عهدي بك أن ترددي ، فيجب ان نبتى !

قالت : لن أسافر

قال : نهائيا ؟

قالت نهائيا

وبكت ، ولست أدري ، أكان البكاء من اجله أم من اجل الموقف الدقيق والمازق الحرج ؟

واشعل هو سيكارته ثم قال : أذن لنشرب ؟

وتناول اقداح الشراب سريعة متتابعة وهو يتأوه ويتلوى ويكظم الغيظ ، وقد ثبت لديه أن «المصري» هو العقبة الكؤود.

***

واسترد الضابط توازنه واستعاد بروده ثم اخذ يكرر الطلب بكل أنواع صيغه وأساليبه ، من رجاء ، والحاح ، وتشدد ، وتوسل ، وتذكير . ولكنها كانت ابدا مصرة بكل انواع صيغ الاصرار وأساليبه ، من ضعف ، واعتذار ، وشدة

ووجم الضابط وجمة طويلة ثم زفر زفرة طويلة ثم قال : ان السفر بعد باكر وباكر هو يوم الاعداد وهو يوم مشحون بالعمل ، لم يبق الا هذا المساء وهذا الليل ، فليكن مساء الوداع وليل الوداع . ويكفيني وقد رفضت رجائي أن أمضيهما معك ولعل الايام المقبلة تجمع بيننا فيها . . .

وقامت « ثروت » فارتدت ملابسها وهي تعلم ان تمضية هذا الوقت مع الرجل الوفي المخلص هو واجب حين عادل .

وذهبا الى الجزيرة وقد ودعت الشمس الافق ، وابتدا الظلام يرسل طلائعه على الدنيا المضيئة . . .

السفر ! . . .

كان الاستاذ «شكري » في اليوم التالي بالاسكندرية في قضية ، وعاد بعد الظهر مضنى من وعثاء السفر ، فلما استراح قليلا حمل

محفظته وتوجه الى المكتب . ثم طلب فنجانا من القهوة وتنسيع جريدة « المقطم » كعادته ليقرأ اخبار المحليات ...

وكان قد أمر الكتبة بأن يحضروا اله بسرعة عمل الغد . وبينما هم منهمكون في تنفيذ أوامر الشاب المحبوب اذا بصرخة تدوى في ارجاء المكتب وتهز اركانه وقد صدرت من غرفته ...

بادر الكتبة فزعين الى النجدة فوجدوا الفتى مغمى عليه وقد سقط من كرسيه وجريدة المقطم بجواره

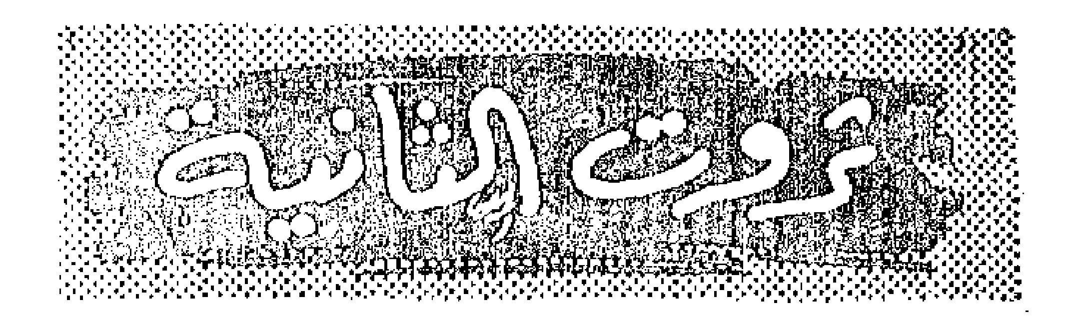
استدعى الطبيب في الحال وعملت الاسعافات السريعة ؛ وكان له زميل من سنه يعرف من خصوصياته الشيء الكثير وقد لفتت نظره الجريدة فأخذها وقرأ فيها ما يأتي :

انتحار ضابط أوسترالى وقتل فتاة

« عثر البوليس أمس الاول اثناء تجوله في نواحي الزمالك بعد نادى الجزيرة البريطاني حوالى الساعة الثامنة بجثتي ضابط أوسترالي وغانية عليها مظهر المصريات ؛ وقد اخترق الرصاص قلبيهما فسقطا صريعين وقد وجد خطاب بجانب الجثتين كتبه الضابط المنتحر وذكر فيه انه بسبب صدور الاوامر اليه بالعودة الى الوطن وعدم امكانه مخالفة هذه الاوامر ولانه يحب صديقته هذه فقد قرر ان ينتحر فأطلق عليها الرصاص أولا ثم اطلقه على نفسه . وانه يودع اصدقاءه واهله ويطلب الغفران من الله »

« أما الضابط فاسمه « جيمس ريد » كما ذكر في خطابه . **واما** الفتاة فاسمها « نرجس » ويظهر انه اسم محرف

« وهكذا مصارع العشاق ... »



فى القاهرة ناد فخم للالعاب الرياضـــية كان ولا يزال ارقى النوادى الرياضية المصرية وسطاوحيثية . مؤســـود كانوا فريقا من كبار الطبقة الارستقراطيـــة المثقفة الموسرة . واعضاء لجنتـــه العليا من الوزراء وأمثالهم

كان « شكرى » عضوا فى هذا النادى . وكان من غـــواة « كرة القدم » وفريق « كرة القـــدم » فى هذا النادى كان اقوى الفرق المعروفة ...

فى قطار الليل الذى يقوم من محطة العاصمة حـــوالى الساعـــة الثامنة مساء احتل فريق النادى مركبة من مركبات الدرجة الثانية ووجهته اسيوط لمباراة ناديها الرياضى . وشوهـــد بين أفراد الفريق المسافرين « شكرى »

ورحلات فرق الكرة فى النوادى والمدارس رحلات ممتعة حقا . هى عبارة عن ضحكات من القلب واعفنى بعد ذلك من الوصـــف هى المرح وهى الســـعادة وهى الهناء وهى الطفولة الفتيـــة بكل مافيها من سذاجة وصفاء وعدم شعور بالمسئولية ...

و « شكرى » كان الثرثار اللبق الحاضر البديهة السريع النكتة ، وكان المورد العـــذب والمصـــدر العذب فى كل رحلة ...

ولكن ، يالخيبة الامل ؟!

كان هذه المرة جامدا كالحجر ، باردا كالثلج ، شاحبـــا شـــاردا كمدمنى المخدرات ...

وحاول اخوانه أن يحـــركوه بنكاتهم الظريفة ومجونهم البرىء فكان ينظر ولا يتحرك

قال الصـــديق نمرة ١ : انت جوعان ؟!

وقال الصديق نمرة ٢ : انت مفلس ؟!

وقال الصديق نمرة ٣ : انت قتلت قتيل ؟!

وانطلقت العبارة الاخيرة كالسهم أصابت فؤاده فصرخ صرخة داوية واردفها بلفظة فيها كل الوجيعة : نعم !!

***

صدق « شكرى » اذ صرخ وقال : نعم

ألم يكن هو القاتل حقا !!

لولا انه كان طارئا طرأ على حياة قاطنة القبر ما احتواها القبر !

كانت عادت الى احضان صديقها ومنقذها فتبعته الى حيث شاء ، وتزوجته أوعاشرته كما يشاء ، وتمتعت بالحياة ولم يغيبها الظلام !

نعم ، كان هو القاتل لا القدر !

وما هو جزاء القاتل فى عرف العدل لافى عرف القانون ؟ ماهو جزاء القاتل فى عرف الواجب لافى عرف المسئولية الوضيعة ؟ ماهو جزاء القاتل فى عرف الحب والهان لافى عرف الحيوان ونصف الحيوان !؟

أن يختفى من العالم وان يرقد بجوار الضحية ! طائعا مختارا يستصدر الحكم على نفسه من ضميره ، وعلى حياته من وجدانه ثم ينفذه بيديه فى روحه ، ثم ينتهى ان كان رجلا وكان شجاعا .

وان « شكرى » لرجل ! وانه لشجاع ؟

اذن علام التردد ؟ وعلام الابطاء ؟

هذا القطار يسير بسرعة البرق ، وهذه النافذة يستطيع ان يقفز منها قفزة واحدة فيصل بالسلامة الى النهاية !

ولكن من يرقده بجوارها لامن يعلم بأمره وامرها ؟ من يضم عظامه الى عظامها ؟ من يشيعه الى قبرها ؟

فلينتظر قليلا ، حتى يكتب رسالته ، ويترك وصيته ...

***

ويفيق « شكرى » من نوبته الجنونية فيجد اخوانه حوله ذاهلين جزعين ، وقد اسعفوه بما لم يشعر به وبما لم يحسه . فينبس متوسلا :

— دعونى أنم

ويصدق الاخوان هذه الدعوى الكاذبة فيتركونه وحده . ولو صدق لقال : دعونى أبك ....

....

الله ! . . .

« يارب ! . . . »

هتاف صدر من اعماق نفسه واهتز له كيانه الجسمي والذهني اي اهتزاز . وكأنه شعر بشيء من الراحة في هذه النجدة الربانية وفي هذا الملجأ العلوي الروحاني الخفي ، فأخذ يكرر الهتاف ويضغط بيديه على صدره وعلى قلبه وعلى رأسه ضغطا عنيفا بقسوة وشدة ، فيصدر الهتاف بجرس صوتي مكتوم حزين تصحبه زفرة حارة نارية يتلقاها بيدين متناثرتي الاصابع على وجهه فترد النفس الناري الحامي عليه فاذا به كله متوقد باللهيب !

كان لهذا الهتاف اثر السحري على نفسه الثائرة المتمردة ، فهي تتراجع رويدا رويدا عن خاطر النافذة المفتوحة في القطار السريع وعن خاطر القفز منها للحاق بعالم الفناء . وهي تخشع وتذل . ثم هي تتجه ببطء لشيء سمع عنه ولم يدرسه وهو : القدر !

وكان الفتى المجنون قد استرد شيئا من ذاكرته الضائعة في هذا الليل البهيم ، وبعد نكبته الفادحة . فهو ينشط بعد افاقته ثم يطل من نافذة القطار . ولكنه لا يوجه نظره للارض التي كانت المرمى منذ دقائق ، وانما يوجه نظره للسماء !

السماء ؟؟ ماذا في السماء ؟

لا تسألني انا وانما سله هو ، وانظر اليه وقد رفع يديه بخشوع . وقد سقطت دمعتان بخوف واحترام وتقديس . وقد خرجت زفرة يحف بها ابلغ ما في قلوب اليائسين من مشاعر ومظاهر وعلامات الاكبار والاجلال . . .

السماء ؟؟ ماذا في السماء ؟

آه . . .

اخيرا واخيرا ايها الشاب المتمرد المغرور ، المغمور ببحر الحركة المادية الطامي . المأخوذ بأنوار الصالات والبارات والمنتديات والمراقص والملاهي . المختلس من عالم الروحانيات بضجيج المدنية وعجيجها وتيارها القوي الاندفاع . . اخيرا واخيرا تتذكر ايها الشاب السماء . ومن في السماء ؟؟

الله ! . . .

نعم : هو « الله » ولا ادري لم يبحث عنه الناس صعودا للسماء . ولا يبحثون عنه هبوطا للارض !

نعم : هو « الله » الذى لانذكره فى الرخاء — ولا فى النعيم — ولا فى اللذة — ولا فى الراحة — وانمانذكره فقط عندما نحتاج ؟ !

« عندما نحتاج » ولست ازيدورتب على معنى « الاحتياج » و « ملحقاته » بما شئت ، من حاجة الى المال — وحاجة الى الشفاء — وحاجة الى السلوى — وحاجة الى الانقاذ

نعم : هو « الله » ايها الجحود وايها الكفر ! وايها العمى ! وايها الصمم !

هو « الله » الذى نذكر زبدة الصباح ، ومربى الصباح ، وشاى الصباح وننساه ..

هو « الله » الذى نصلى للدرجات ! ونركع للترقيات ! ونسجد للعلاوات ! ونسبح بحمد الوزراء والرؤساء وننساه ..

هو « الله » الذى نحج لكعبة الحكم . ونقبل حجر لاظوغلى . ونطوف حول بيت الوجاهة وبيت المال وننساه ..

هو « الله » الذى نضحى من اجل السلطة الارواح والاموال والاخلاق والوطن وننساه ..

هو « الله » البعيد عن الخاطر فى كل ضحكة ، وكل رحلة ، وكل وليمة ، وكل سهرة . والقريب من الخاطر — فقط — عند الازمات والحسرات !

* * *

هذا « ذكر الله » رفه عن الفتى لوعته ، وزحزح كربته ، وخفف مصيبته ونكبته !

فأين « كلام الله » ؟

كلام الله ؟

كد الفتى قريحته . واجهد ذاكرته . واضنى مخيلته . فلم يظفر بكلمة من كلام الله !

واحسرتاه !

الف رحمة على عهد «الكتاب» فى القرية . والف رحمة على عهد « سيدنا الشيخ جاد » و « ستنا الشيخه صابحة »

بخ بخ ومرحى مرحى !

الحكومة المصرية الاسلامية القرآنية ماذا علمته فى المدارس ؟

ان الجواب عند المستر «دنلوب» وعند خلفاء المستر « دنلوب » حصة واحدة اضافية فى المدرسة الابتدائيه يلقنون فيها

يعني آيات القرآن كالببغاء . فهو يحفظ الآيات عن ظهر قلب ولا يعلم منها شيئا

وحصة « الديانة » ستجيء في آخر النهار وقد لعب الجوع بمثل الصغار وبعقله . وقد لعب الحر والعناء بأجفانه وذهنه !

فاذا ما تخطى دراسة الطفولة وانتقل الى الدراسة الثانوية حيث يشرع العقل فى النضج • وحيث تشرع المدارك فى الاستواء ، كانت الكرة والجمباز أجدى على البدن من الدين على النفس » !

واذن فهناك كرة وجمباز • ولا دين •••

فاذا ما انتقل للدراسة العالية فالدين علم متأخر لا يتمشى والمنطق والقانون والاقتصاد ، هو لا يرتفع الى مستوى العلوم العصرية والدراسات الفقهية !•

فاذا ما تخرج الفتى لم يذكر من قرآنه • ودينه • وسننه • وروحانيته غير خيالات «كتاب» القرية ، وغير ايضاحات «سيدنا» الشيخ و « ستنا » الشيخة

فاعذروه ان انطلق عدوا الى « البنسيون » الذى لم أشأ ان أسميه ؟ •••

واعذروه اذا نسي « الله » ونسى « كلام الله » •••

واعذروه اذا حرضته نافذة القطار على السفر الى النار ، وبئس القرار •••

٭٭٭

واشتدت لهفة الفتى على « كلام الله » •••

وكان بين اخوانه من فريق الكرة المسافرين معه شاب طيب متدين أطلق عليه اخوانه اسم « الشيخ احمد » ••

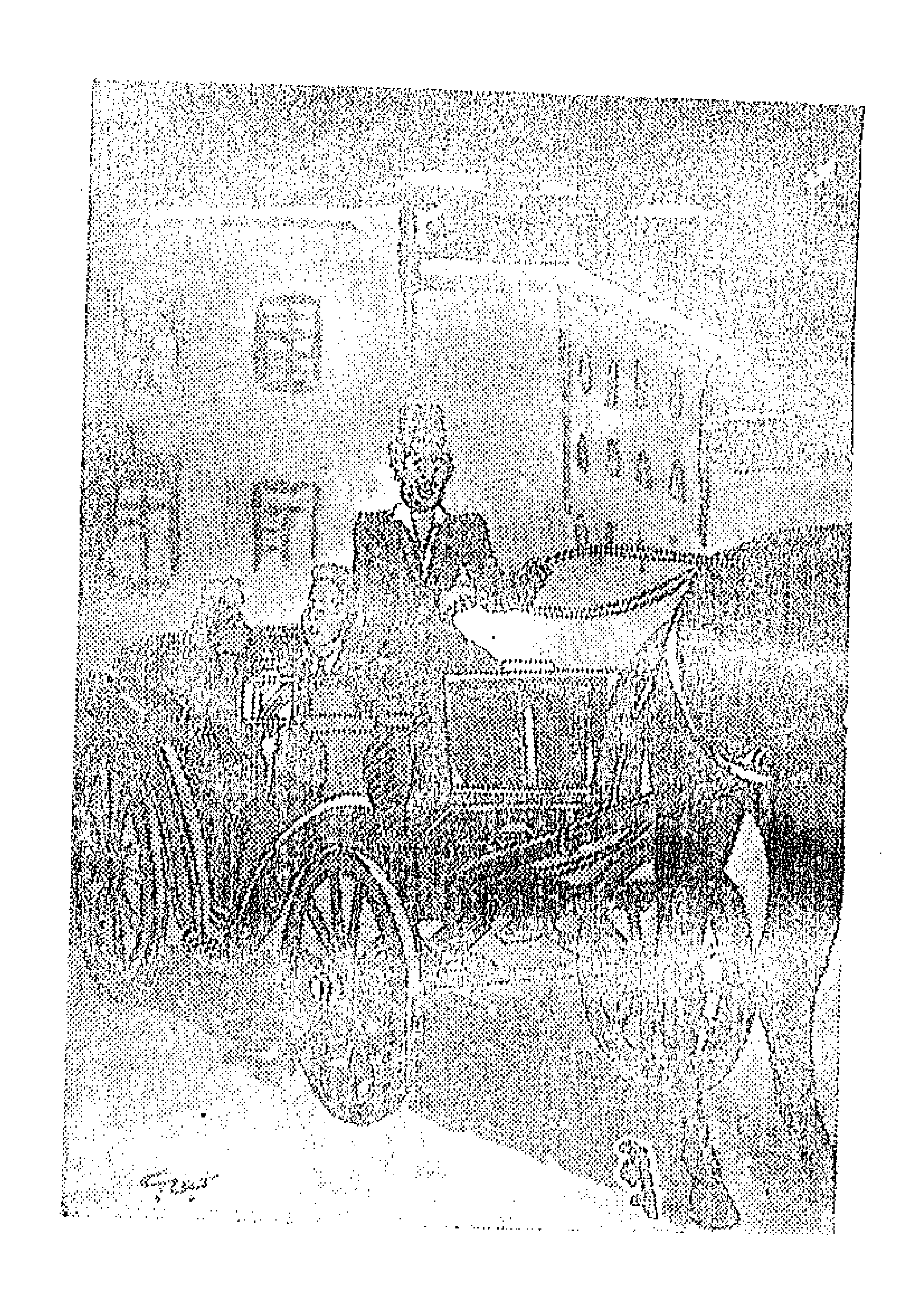
اقترب منه الاستاذ الناشيء وأسر فى أذنه أن يتنحى معه ناحية هادئة لانه فى حاجة اليه ••

ولبى « الشيخ احمد » الدعوة المستكينة الذليلة

قال : أتحفظ كلام الله كله ؟

قال : كله • والحمد لله

قال : أنجدني فقد أوشكت الان أن أنتحر ! •••



وراى شكرى من واجبه ان يصحب الفتاة الى منزلها فى عربة

هنا خلع « الشيخ احمد » حذاءه « وتربع » وأخذ يرتل الايه : « وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون »

قال وقد أخذته روعة : أعد وتمهل

فأعاد « الشيخ احمد » الاية الكريمة ، وأخذ صاحبنا يلتهم روحانيتها التهاما وهو مطرق اجلالا واحتراما

وقرأ «الشيخ احمد » : « ولا تيأسوا من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون »

قال : زدني يا « شيخ احمد » فاني أشعر بالطمأنينة تتسلل الى قلبي

قال : اسمع : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، الا بذكر الله تطمئن القلوب »

قال الفتى : يمينا لاذكرن الله ، ولاحفظن كلام الله

قال الشيخ احمد : اذن سأعيرك مصحفى الليلة لتقرأ فيه كلام الله ولتدرك معنى كلام الله

ودفع اليه المصحف الكريم فأخذ يتلو السور سورة سورة حتى قال المنادى : أسيوط . . . .

. . . .

. . . .

اسيوط المنكوبة ! . .

لم تكن الرحلة الرياضية هى السبب المباشر لرحلة « شكرى » الى أسيوط . انه احب أن يغادر القاهرة ليغادر الذكريات المؤلمة ، ومن الصدف العجيبة انه قبل حدوث الحادث كان قد تلقى عدة خطابات من اخوانه المحامين تحت التمرين بأسيوط ومن اخوانه اعضاء النيابة بأسيوط — وكلهم من خريجي فرقته وزملائه واصدقائه الذين يحبونه حبا جما — يحرضونه كل التحريض على ان يشتغل محاميا بأسيوط كمساعد لاحد نوابغ المحاماة هناك . ومنشأ الفكرة ان الصدف العجيبة ايضا جمعت بين اخوان الفرقة فى صعيد واحد . ولما كان « شكرى » يتمتع فى المدرسة باعجابهم وتقديرهم

فكروا فى التأثير عليه حتى يجتمع الشمل وحتى تتكون جمعيتهم الظريفة من جديد ...

واغرب ماكان فى ذلك الاغراء وذلك الاغراء انهم حملوا ذلك المحامى النابغة على ان يكتب خطابا يعرض فيه مرتبا شهريا قدره عشرون جنيها ، وهو مرتب يمتاز عن مرتبات زملائه المحامين تحت التمرين وزملائه أعضاء النيابة ...

لما حدثت الصدمة المراطفية وجد « شكرى » الفرصة سانحة ممدة ووجد فى ذلك المهجر ماقد ينسيه آلامه واحزانه ، وما قد يشغله عن ذكرى الماضى الكئيب .

واستقبله اخوانه على القطار الذى يصل بعد منتصف الليل بكثير . وكانت مجاملة ايما وقعها . وامضوا الليلة فى منزل أحدهم ، ثم اتصل بأعضاء ناديه حتى انتهت المباراة وملحقاتها من ضيافة وسهرات وحفلات وعاد فريقه الرياضى الى القاهرة . واستلم هو عمله فى مكتب زميله المحامى الكبير ...

✻✻✻

ولم تمض ايام قليلة على حياته العادية فى أسيوط حتى انطلقت القنبلة الاولى من قنابل الثورة المصرية من اقليم المنوفية ، ثم تطاير الشرر الى غيرها من الاقاليم ، واشتعلت نار الثورة فى القطر بأسره فكانت ثورة مباركة لعلها المثل الاوحد على رجولة الامة المصرية فى عهدها الحديث !

وقطعت المواصلات بأنواعها بين اسيوط والقاهرة وبين اسيوط وغيرها من مدن القطر ، فكانت عزلة تامة ثم كانت المآسى ...

✻✻✻

لاتطمع فى ان تقرأ هنا تاريخا لحوادث الثورة فى أسيوط . ليس ذلك من شأنى ولا من شأن بطلى . وانما انا امزج فى استعراضى هذا بين الحب والسياسة والاخلاق والاجتماع . وفى أسيوط اجتمع لفتانا كل هذا ، فقد وصلت الى اسيوط اخبار الثورة مضخمة مجسمة ، فهذا رجل محترم يقسم بأغلظ الايمان ان عرب « الباسل » احتلوا القلعة ! وهذا آخر لايقل احتراما يحلف بوحيده « حسونه » ان الرديف المصرى تجمع واكتسح قشلاقات العباسية وقصر النيل ! وهذه منشورات اليد السوداء المصرية المستعينة بالفوضويين .

الطليان والاسبان قد بشرت بفناء الاحتلال و فرضت ارادتها فرضا على حكام الاقاليم المصريين ؟

نفثت هذه الاخبار الثورية روح الحماسة فى صدور الناس فتحفزت أسيوط وكشرت عن أنيابها . وكان الحب الميت قد أوقد فى صدر المحامى الناشىء شعلة من الشعر الثائر فألف نشيدا وطنيا ملأه بالدم وبالتضحية وبالفداء ، ثم لحنه تلحينا شعبيا سهلا وأذاعه ، وطبع منه الطابعون أكثر من عشرين الفا من النسخ وزعوها على الجماهير وعلى المخادع وفى المزب والكفور وكانت نغمة الائتلاف بين الاقباط والمسلمين أنشودة تلك الايام فترنم بها فى نشيده والقاه فى الكنيسة فى صباح يوم من الايام ، فاذا بالناس تموج موج يوم القيامة واذا بالشر المقدس الوطنى المتشفى السفاك يدفع الجموع دفعا نحو الانكليز ...

ويزحف البؤساء العزل زحف الاسود الكاسرة القلمة الاظفار والانياب على مستودعات الذخيرة المحلية وعلى سلاح البوليس فيتخاطفونه تخاطفا ويتقلدونه فارغا ومملوءا ، ويتكون فى لمح البصر جيش الثورة من « الجلاليب » و « الزعابيط » . وعدتهم عبوديتهم الكريهة التى طال عليها المدى ، وهناؤهم المالى والعائلى الذى سعلت عليه اهوال السلطة ، فغيبت فلذات الاكباد فى فلسطين والتهمت الذرة والقمح والحمير والجمال ورزق العيال وقوت العيال ...

ويصيح الصائح ويهتف الهاتف : ان « فيصلا » شيخ العرب المظفر والصنديد الذى لا يقهر قد تقلد القيادة العامة ، ثم يسمع الناس بعد قليل صوت الرصاص فى « المليان »

ويخيم الظلام فتشتد المعركة وتحتد ، ثم فجأة تنطفىء الانوار فى أسيوط الكبيرة ويسودها الظلام ...

ان وابور النور قد تعطل ...

ويختبىء الناس فى دورهم ويحكمون اغلاق الابواب ، وقد انتشر الذعر فتسلل الى كل بيت والى كل قلب

فجأة ينطفىء النور ثم فجأة تندلع النار ...

هذا « تبن السلطة » المكبوس المكدس على مقربة من جدران العمارات والقصور فى أسيوط قد أصبح محيطا لا من الماء ولكن من اللهيب ...

والنار ترتفع وترتفع ثم تلقى بأذنابها الطائرة على المبانى القريبة فتحترق ...

وينتهز الاشرار الفرصة فيقتحمون الحوانيت سالبين ناهبين متاجر الاجانب والوطنيين سواء بسواء

وتتوحد الاسر الاجنبية وتتحصن وراء الابواب بالدموع وبالدعوات وبالانين ...

ورجال الحكومة قد سقط فى أيديهم من الكبير الى الصغير فتلاشوا جميعا وقنع كل واحد منهم بمخبأ وبملجأ ...

وتختفى اسيوط ، فلا ترى فيها ولا تسمع الا الظلام والا الرصاص والا النار والا العويل ...

***

فى تلك الليلة السوداء المجنونة وجد « شكرى » واخوانه الاغراب من أعضاء النيابة والمحامين الناشئين ان البيوت الكبيرة قد أوصدت ابوابها واوقفت حولها الحراس من فلاحيها وزارعيها خوفا من الثورة ـ الثورة ضد الانكليز ، والثورة ضد الثروة ! ! !

نعم كانت حقا ثورة ضد الانكليز يقودها بعض المتنورين . وثورة ضد الثروة يقودها الاشرار الفقراء . اما ثورة الانكليز فكانت تدور رحى معاركها حول مدرسة الامريكان وحول الخزان . واما ثورة الثروة فكانت تدور معاركها فى الحوانيت والمتاجر . وكان «شكرى» واخوانه الاغراب يتحصنون فى شقة احد الزملاء ، ولكن « شكرى » بعد نكبته العاطفية كان لا يزال ذاهلا شارد الذهن لا يقوم روحه بشىء . سمع فى الشقة المجاورة انينا ، واحس بكاء وعويلا ، فاتجه نحو الباب واخطر من بداخله بانه رسول امان ففتحوا له ، وجد امامه ـ ويالهول ما وجد : ـ نساء واطفالا رضعا وغير رضع ورجالا كالنساء والاطفال «أجانب» يكاد يميتهم الهلع قبل أن يصيبهم الرصاص . ابت سخافته فى هذه اللحظة الرهيبة الا ان يلقى عليهم محاضرة فى روح الحركة ونزاهة الحركة ، ولكن من يسمع ومن يصدق . والتفت سيدة وقور بجسمها على قدميه تقطعهما تقبيلا وتوسلا وهى تشير اشارة متخاذلة نحو باب العمارة ، وكانت عمارة محمود باشا سليمان رجل الصعيد العتيد . وولده «محمد باشا محمود» احد المنفيين فى « مالطة » ومن اجلهم قامت الثورة واندفع « شكرى » نحو الباب يتبين ما يجرى فاذا به يلمح صفائح البنزين المنهوب من مخزن مجاور قد رصت رصا على محاذاة جدار العمارة ، واذا به يشهد ـ ويالهول ما يشهد ! ـ الثائرين يوشكون ان يشعلوها بعيدان الكبريت ! ! !

زاد فى وجوههم زئير اليائس المستميت . فقال أحدهم : « هنا انكليز » . . . قال : أخطأتم بل هنا أجانب ، وهنا أمهات ، وهنا أطفال ولن يقدم أحدكم على جريمة قبل أن أكون أنا أول ضحية ، هـذه عمارة « محمد محمود » ولاجل حريته وحرية بلاده ثرتم . وأنتم الليلة تخربون بيته وتنسفون ملكه . الى الوراء . الى الوراء . .

قال وحش من الوحوش : « أسكت . وهل وزع محمود باشا سليمان أرغفة العيش على الجائعين ؟ نحن طلاب قوت ! ! ! »

وكانت صدمة أية صدمة للفتى الوطنى ، خلط عجيب بين طلاب الاستقلال وطلاب القوت ! وخلط غريب بين الكفاح القومى والاشتراكية الساذجة ! . .

وحاول اللص الاكبر أن يشعل النار فقبض الفتى على يده متوسلا ، ولكن الفقر الجاهل الكافر كان لا يعى ولا يفهم . حتى هتف هاتف . أسرعوا الى دكان السجاير ، فتركت العصابة صفائح البنزين وهرعت الى الغنيمة اللذيذة . فحمل بيده هو وزملاؤه الصفائح ، ولم يرتا، أحد من غواة التدخين . . .

***

صوت الرصاص لايزال يدوى دويه الرهيب . . .

عمارة « النميس » الحديثة الطراز تشتعل بالنار . . .

بركان التبن المكبوس لايزال يرسل الشرر واللهب . . .

كل هذا كان هينا بجانب النكبة التى حلت بمتاجر الصاغة داخل البلد . اسيوط عاصمة الذهب و« المصاغ » أصبحت محكومة بعصابات اللصوص . وحوانيت الصاغة وفيها رءوس الاموال الطائلة قد أصبحت اثرا بعد عين .

كان التجار الاقباط هم الفريسة ، ولعلى أذكر تعليلا واحدا يهون الامر . فقد كانت الليلة السوداء ليلة الاثنين وكانت ليلة لم يرقب مقدماتها الاقباط لانهم يقفلون متاجرهم يوم الاحد ، فلم يحتاطوا فحلت بهم النكبة ، وكان هم الشبان المسلمين أن يصونوا الوحدة القومية وكانت مهمة شاقة ، وكان عسيرا على المسلم أن يقنع قبطيا نكب فى ثروته عن آخرها بنزاهة اللصوص وبعدهم عن فكرة « التعصب » . ولعل « شكرى » كان أتعس الناس بهذه الظاهرة ، وكانت مواساة الاقباط المنكوبين سخافة . وتغلغل « شكرى » بين العصابات فى الليل البهيم يعظ وينصح ولكن هيهات ! . .

ثروت الثانية . .

.. وفى زقاق من الازقة سمع صوت استغاثة مكتوما فاتجه نحوه فى الظلام . وحدق فى وجه المستغيث فلما تبينا سقط على الارض قابضا على القدمين بيديه الفولاذيتين ، وانقلب المستغيث مغيثا فحنى على الاستاذ يهدىء روعه ويثيب اليه رشده . وأفاق « شكرى » فأخذ يقبل شعر المستغيث ووجهه تحت تأثير طارىء غريب من الجنون المنصفى ثم انهمرت دموعه وأخذ يصيح : ثروت . أنت هنا ؟ . اذن لم تموتى ! ؟

كانت الفتاة المستغيثة فتاة هى بعينها « ثروت » فى القوام ، وفى القد وفى اللون وفى الروح ، ولكنها لم تكن ثروت ...

والفتاة المستغيثة مأخوذة بهذه الحالة العجيبة . ولكنها تحس نحوه احساس الاشفاق فتمسح دموعه وتقول له : تنبه أنت مخطىء . انا طالبة بمدرسة الامريكان واسمى « مريم » . . . هيا انقذنى وعد بى الى منزلى ...

ويثوب صديقى « شكرى » الى رشده فيدرك خطر الموقف وسخافة تصوره . ويعتذر للفتاة اعتذارا كله خجل . ويحيطها بذراعه وصدره ويقتحم بها الجماهير الثائرة الناهبة ، وهو كالاسد متحفز لكل مفاجأة ، حتى اذا استقام الطريق قليلا وخلا من المارة سألته الفتاة برقة : الست صاحب النشيد ؟

فيجيب : انا هو يا آنسة ..

فتقول : لك تهنئتى واعجابى ، انا احفظه عن ظهر قلب وكل زميلاتى ... ثم تبكى ؟

فيقول لها : ما يبكيك ؟

فتقول : جاء أبى لزيارتنا قبل الحادثة ولم يعد للآن فبادرت أبحث عنه وسط هذا الرعب فلم اظفر به . وكدت افترس حتى أستغثت بك ...

قال : احمد الله ، ومن اين ابوك ؟

قالت : نحن من بلدة (. . .) وهى قريبة من هنا وسنعود بأية طريقة فى أول فرصة ...

قال بسلامة الله ...

ومرت برهة . واذا بالفتاة تفاجئه بهذا السؤال :

ـ ومن هي ثروت ؟ .

قال : هي التي أتت بي الى هنا

قالت : اهي من سكان أسيوط ؟

قال : بل من سكان القبور

وكانت فتاة لماحة ففهمت ولم تنبس ببنت شفة . . .

فلما وصلت لمنزلها عطفت قائلة برقة وأسى : أتراها تشبهني ثروت المرحومة ؟

قال وهو يضغط على يدها شاكرا عطفها : كل الشبه

قالت : اذن أدعوك لزيارتي كلما شئت ان تراها

قال : اشكرك

وكان أبوها على باب المنزل ينتظرها بفارغ صبر فتلقاها بحنو الآباء . ثم سالها : من هذا ؟

فقالت : منقذي

واستأذن «شكري» وعاد ادراجه وهو بين ثروت الميتة ، وثروت الحية . . .

الثورة الجامحة لاتبقي ولا تذر كل شيء في البلد ينهب : اثواب الحرير النفيسة ، زجاجات الروائح العطرية الغالية الثمن ، أسرة النحاس الفاخرة ، الاحذية اللامعة ، الاثاث الذى لا يقدر بثمن ، مخازن « اسنين » تنقل كلها حتى « باركيه » الارضية يقتلع ، وكانت المناظر بين مضحك ومبك ، فهذا ثائر يحمل على ظهره « البنك » الذي يعرض عليه العمال الاقمشة ويقف حوله الزبائن وهو ينوء تحت حمله الثقيل هاتفا : يحيى الوطن ! ! وهذا ثائر آخر ظفر بجاكتة «سبورت» من جاكتات «التنس» الظريفة فهو يرتديها على جلابيته او زعبوطه وهذا ثائر لبس حذاء من نوعين ولونين ، «الفردة» اليمني سوداء لامعة للسهرة ، و « الفردة » اليسرى بيضاء للتنس» ـ وتضرب الفوضى باختصار اطنابها على اسيوط فلا تحكمها الا الفوضى !!

فاذا ما سألت عن «الحكومة» : اين هي ، واين مقرها ؟ وجدتها متحصنة في بيوت الاعيان او القناصل محروسة بالاهالي من غير جنس اللصوص ؟!

وتنتشر اشاعة : ان الطيارات الانجليزية على وشك الوصول لتلقي القنابل على المدينة الهائجة المائجة ، فترى في الحال رتلامن

العربات الفاخرة تحمل الاعيان وتحمل الحكومة ، بموظفيها الكبار تنهب الارض نهبا . الى اين ؟ أتدرى ؟

الى الاسبتالية الاميرية لتلوذ الحكومة ويلوذ الاعيان بالبناء المقدس ويختفوا فيه تحت حماية المرضى وذوى العلل والاسقام ! ...

وتسمع فى السماء أزيز الطيارات فيملأ الذعر قلوب الثائرين وغير الثائرين ويلوح الشبح المخيف فى الجو فيدور دورة أو دورتين ثم يهدى تحيته البليغة الى المدينة : قنابل ...

ويشاء ربك الحكيم الجبار أن تسقط القنابل على الاسبتالية مخبأ الحكومة وملجأ الأعيان والموسرين والارستقراطيين بعد أن أجلوا عنها المرضى وانصاف الموتى ...

ويتحكم الهلع فى الرءوس وفى الابدان وفى الاذهان وفى الالسنة فلا يلد الا مظهرا واحدا : الذهول ...

واستراحت القنابل واستراحت الطيارات بعد أن خطفت عدة ارواح صغيرة لاطفال صغار وبعد أن أسكتت ضوضاء الاهالى الثائرين ...

وينزوى الاستاذ « شكرى » فى غرفته بالفندق وهو يمزق شعره ويلطم خده من الغيظ ومن العجز . يسائل المسكين نفسه بذل وجبن وانكسار : أيصعد الى السماء فينازل الطيارات ؟ أم ينزل الى الارض فيكافح العساكر « الهنود » ؟

هو يهتف : الى النزال الى النزال ؛ ولكنه يلوح بيديه أسوة بالمرحوم المبرور « دون كيشوت » البطل المغرور

***

ويدق باب الغرفة فجأة فيأذن بالدخول
الخادم يحمل ورقة صغيرة فيها هذا الاسم :
« ثروت » ...

***

وتدخل الآنسة « مريم » وعلى ثغرها ابتسامة شجاعة فتلقى تحية ساذجة بعيدة عن التكلف والتصنع وعلى الطريقة الانكليزية البيانية المحببة الى القلب والنفس ...

يرمقها أذنها وارقها وأصعبها فى التحليل ! ....

دهشة ، وعاطفة ، وتقدير ، وحيرة . . .

ويغلق الباب . ولا يدرى واضع هذا الاستمراض من انفعه : أهي الخادم ؟ أم الاستاذ . أم الآنسة ، أم هو الجيلانا غلق نفسه بنفسه برا بهذا الطهر وهذا العفاف ؟ . . .

قالت : هل يحرجك وجودى ؟

قال : مطلقا ياآنسة،بل بالعكس . وجودى الذى يحرجك . . .

قالت : لايعنينى ، أنا أسيوطية،وانت فى أسيوط غريب . . .

قال : شكرا

قالت : نعم غريب . . . وحزين أيضا . . . ومهدد بخطر !

قال : شكرا

قالت : وعدت « ثروت الحية » بالزيارة فلم تفعل ، فهاهى تسعى اليك .

قال : شكرا

قالت : خشيت عليك من الطيارات فجئت لأطمئن . . .

ولمحت الفتاة اللماحة فى عينيه دمعتين فاخرجت منديلها الصغير الانيق ومفت به وبأناملها عليهما ، فاستولى على يدها الصغيرة يقبلها بضعف واستسلام . . .

***

هل تلذ لك أيتها القارئة الصغيرة وأيها القارىء الصغير رواية هذه المقابلة العجيبة ؟

كان من رأيى أن أضن عليكما بالتفاصيل لولا أنها تكادتكون خالية من التفاصيل . . .

هو مشهدمن مشاهد السينما . ولا عجب فالفتاة لابد قرأت كثيرا من الروايات وشاهدت كثيرا من « الافلام » السينمائية . ووجدت فى صاحبنا بطلا من الابطال الذين شاهدتهم أو قرأت عنهم فاقدمت وفى نفسها أن تفاجئه لتواسيه .

و « ثروت » عندها قصة ، ومثار للفضول وحب الاستطلاع ، وهو غريزة الفتيات والجنس الناعم على العموم . . .

اذن لنهمل الخطر جانبا . ولنحتقر الطيارات مؤقتا . ولنتجاهل أسيوط المنكوبة لحظة ، وليتكلم « شكرى » طويلا عن « ثروته »

يالسذاجة الفتيات !!

لئن قبلنا عذر الآنسة « مريم » فكيف نقبل عذر الفتى الناضج

« شكرى » وقد أخذ يروى قصة « ثروت » بأسلوب تركب من الحماسة، والدموع، والتنهدات، والحسرات ... ؟

يقول بعض خبراء العواطف : ان « الخطر » يلد العاطفة بسرعة البرق ! اليس هو الذى يعطف القلب على القلب ؟ ؟ اليس هو الذكرى الرائعة الرهيبة التى لاتفارق الاذهان فى مختلف الاسنان . ؟

وما هو الحب ؟

هو عندى بلا تطويل ولااطناب : مجرد « الذكريات » ..

هل فهمت ما أقصده من هذه العبارة الموجزة ؟ أن كنت لاتزال محدود الذكاء فاعلم ان عاطفة نشأت سريعة بين « شكرى » و « مريم » ولكنها « شىء » مبتكر فى عالم العاطفة ؟ !

أما « شكرى » فدفاعه ان هذا « الشىء » نحو « مريم » هو الوفاء كل الوفاء « لثروت »

اليست تشبهها قدا، ولونا، وروحا ؟ ؟

اذن هو لايخون الميتة بهذه الحية ...

وعجيب هذا الوفاء للاموات ! !

أنه يشعر رغم هذا التحليل بشىء من وخز الضمير

ولكن ما أرحمك يارب !

يموت العزيز علينا فتشيع جثته بكل مظاهر الحزن والجنون والوجيعة، فاذا ماقسمنا المأتم فى ليلته الاولى لم تتعفف عن السمر وعن تبادل النكات وعن الضحك ؟ !

وتغيب فى أسرع من رد الطرف ذكرى العزيز ...

ويغيب الوفاء ...

ليس هذا فى نظرى جحودا ونذالة، والا كان جحودا من اخس انواع الجحود، ونذالة من احقر انواع النذالات

انما هو « الله » سبحانه وتعالى يبعث الصبر الى نفس المحزون بقوة تفوق قوة الحزن ردا لفعل الصدمة فتتخدر الاعصاب المتوترة فتعود فى الحال سيرتها الاولى ...

فينسى الاحياء الاموات فى اقرب الاوقات ! ...

***

أما « مريم » الصغيرة الناشئة فقد أحدث الخطر فى نفسها هزته الاولى

ثم احدثت المفاجأة الثانية الهزة الثانية ...

ثم استفز عواطفها الفضول ...

ثم لذ لها أنها تشبه فتاة من أجلها سالت دموع شاب معروف ، ومن أجلها حدث تشنج وإغماء ، ومن أجلها تجاذبت عواطف قوية فيها لوعة وفيها أنين ...

ولا يغري المرأة الصغيرة أو الكبيرة غير الاعجاب المضمر أو الصريح ...

ثم أتدري ما الذي أشعل هذه العاطفة الصغيرة العجيبة ؟

انها الغيرة !

واو من ميتة ؟!

والغيرة من الاموات عنصر قد يفقد من عناصر غريزة المرأة ؟!

أنها غيرة لاتصل الى مستوى التشفي أو الحقد أو المقت . وانما هي غيرة والسلام ...

ولا تستكثر هذا التحليل على فتاة في سن الثامنة عشرة ، اذا كان اتجهت الى هذا النقد عند تلك محدود التجربة في عالم الفتيات !

وليس هذا مجال الدفاع عن نظريتي بتطويل . وانما أقول باختصار : تلك هي تجاربي وكفى !

❊❊❊

هذه هي نفسية الفتى ونفسية الفتاة حين كان « شكري » يروي و « مريم » تسمع ، وحين كانت الثورة في أسيوط تسكن أمام صوت مقذوفات القنابل ، ولكن احتشام الشاب الاصيل والشابة الاصيلة كان يحول دون كل تلميح أو تصريح . كانت العواطف تتفاهم بعذر وتحفظ وجبن . وكانت الالسنة خرساء والعيون تتخاطب ولكن الروحين تتقاربان

وانتهت المقابلة على « ابتسامات » فيها حنو ، وعلى مواعيد ومقابلات فيها خفر وحياء ...

❊❊❊

لم تكد الفتاة تلتفت نحو الباب حتى سمعت أسيوط دويا ثالثا هو مدفع « المترليوز » قد ركب وسط الخزان وأطلق ناره يمينا ويسارا فأباد مخلوقات ومخلوقات ورأى « شكري » من واجبه ان يصحب الفتاة الى منزلها في عربة فركبت مكرهة وركب مكرها ، حتى اذا وصلت الى باب منزلها ودعها بارتباك ...

وعاد في الحال الى غرفته ثم أغلق بابها وهو في أشد حالات التهيج والسخط ثم نظر في المرآة وخاطب نفسه قائلا : انت نذل !..

❊❊❊

ثم ارتمى على سريره يبكى الوفاء — ويبكى عدم الوفاء

ثم زفر زفرة وهمس هاتفاً : غفرانك ياثروت ...

القرون الوسطى !!!

وما شأن القرون الوسطى بسنة ١٩١٩ ؟

بل وما شأنها بأسيوط ؟ ...

سل الجنود البريطانية الاوسترالية الهندية الزاحفة نحو أسيوط ...

سل « النيابة العمومية » الانكليزية القائمة فى أسيوط ...

سل المحاكم العرفية المنعقدة فى أسيوط ...

سل الضحايا واذرف الدمع على البلد الذليل المسكين ...

❊❊❊

انطلقت نار الثورة فى عاصمة الصعيد ...

وابتدأت نار السلطة فى الاشتعال ...

❊❊❊

اقرأوا الاوامر الآتية :

« يجب على كل مصرى كائناً من كان أن يؤدى التعظيم العسكرى لكل بذلة رسمية من بذلات جيش جلالة الملك البريطانى فى الطريق » !!

« يجب على كل صاحب بيت تطلب السلطة العسكرية تفتيشه أن يفتح الابواب فى الحال » !!!

« يجب على من اتصل بعلمه اى تفصيل من تفصيلات الاضطرابات ان يقدم البيانات فى الحال » !!!

سمعنا وأطعنا ... ...

هانحن نؤدى التعظيم العسكرى اللازم لكل « بذلة رسمية » ولو كانت لسواق سيارة ، او لسائس حصان ...

هانحن نفتح الابواب لعساكر السلطة السكارى المترنحين ...

ثم — واحسرتاه — هاهى البلاغات تنهال كالمطر على المعسكر !..

❊❊❊

وتربع « مكنوتن » مفتش الداخلية على العرش وملك وحكم ..

وسلطا « كرباجه » على ظهور المهندسين والمعلمين فى القهوات

والمنتديات العامة . وذلك الكبار والصغار والحكام المصريون والمحكومون المصريون ..

وتسلى العساكر الانكليز بالرصاص يداعبون به أرواح المارة من باب المزاح وتضييع الوقت مادامت أرواح هذه الخراف بغير ثمن؟!

❊❊❊

فى وسط ذلك الرعب طأطأت الرءوس جميعا ماعدا رءوسا .. رءوسا صغيرة لينة طويلة تراصت تحت أعلام غير منكسة : بل تحت أعلام مرفرفة فى الهواء متوثبة نحو السماء ! ..

يهدرون هدير البحر ويزأرون زئير الاسود ، منشدين :

« وطنى ! وطنى ! . . »

وزحف الجيش الصغير الوثاب نحو دار احد اساطين الزعماء — بسيونى بك — وحاصر القضاة والمحامين فى اجتماع عقد باسم « النصيحة والتهدئة .. »

واذا بالجيش الصغير ينتفض جيشا عرمرما بارز القلوب ، والانياب ، والاظافر ، واذا به يصطف صفوفا منتظمة ، وينتظم فرقا وضباطا ، وجنودا ، وحملة أعلام ! . . . .

وخطب القائد الصغير الاول فقال :

« جاءت أخبار الاعداء بأن جيشهم زاحف ! وان رصاصهم « دم دم » ! فأعددنا العدة للمعركة . وسلاحنا سلاحان معنويان : قلوب وايمان ! ! »

ثم نهض القائد الصغير الثانى فقال :

« قيل لنا أن « دم دم » هذا رصاص مسموم ينقل من الاولى الى الاخرى فى ثانية . فأعددنا له عشرة أعلام وعشر ضحايا . فاذا سقط حامل العلم الاول تقدم وريثه حامل العلم الثانى ، وهكذا حتى تبيد فرقتنا وتسقط أعلام مصر على جثث فتيان مصر ! ! »

هنا قام احد البارزين فما كاد يفتح فمه بالقول اللين حتى أخذته الصيحات من اليمين واليسار ومن الامام والخلف وحتى امتلأت جوانب المنزل بالنشيد النارى .

نشيد الاستاذ « شكرى »

ووراء صفوف الفتيان انتظمت صفوف الفتيات وعلى رأسهن القائدة « مريم » !

❊❊❊

اولئك كانوا طلبة مدرسة الامريكان لم يشهد الاستاذ « شكرى »

فى حياته أبلغ السنة ، ولا أعمر قلوبا ، ولا أعنف عزائم ، من السنتهم وقلوبهم وعزائمهم ..

وعبثا حاول الزعماء المجتمعون أن يخففوا من حدتهم وبادر الوشاة فبلغوا معسكر السلطة ان «الضحايا» الفتية قد باعت — سلفا — للوطن الارواح والابدان. فخشيت السلطة تجدد الفتنة والقت السلاح وفرغت من «القاضى» الرصاص المسموم ...

وأنقذ الطلبة الاعزاء أسيوط الكبيرة من نكبة دامية . ولله ان طلبة الامريكان ، كانوا عنصر الثورة الذى ضرب المثل الاعلى فى معنى الثورة ومعنى الفداء !!

***

امطرت سماء الخسة والنذالة وابلا من البلاغات على ضباط السلطه القضائيين ، وبدات التحقيقات تسير بسرعة البرق ، وصدرت أوامر القبض كرصاص «المترليوز» تصيب من فى طريقها بريئا كان أم غير برىء كبيرا كان ام غير كبير ...

تلك كانت تحقيقات تليها محاكمات وفيها « سين » و « جيم » واخذ ورد . انما كانت بجانبها طلقات نارية يطلقها العساكر الانكليز على من يتوسمون فى شكله ، وعدم انتظام تقاطيعه ، وقلة انسجام ملابسه ، انه مجرم .. مثل هؤلاء كانوا لا يستحقون قبضا ولا تحقيقا ولا محاكمة .. علام ضياع الوقت وضياع الحبر ، وضياع الورق ؟ ! ..

الرصاصة السريعة هى المحققة وهى الحاكمة وهى المنفذة ، والقبور موجودة فى الطريق ، وفى الزوايا ، وفى الازقة .. ورحم الله من لم ترحمه السلطة العسكرية؟!

من بين « الضحايا » المرحوم « كامل » مأمور البندر ، أتدرى ماكانت تهمته ؟ ؟

حينما فاجأه الثوار محاولين اقتحام الابواب لاغتصاب السلاح اتصل بكبير الحكومة طالبا الامر فقال له : تصرف ! ...

واتصل بالمستر « مكنوتن » الانكليزى ممثل السلطة العسكرية فقال له : تصرف ! ...

واتصل بقائد القوة العسكرية القليلة الموجودة اذ ذاك فقال له : تصرف ! ...

وتصرفت الضحية المسكينة بالشدة تارة ، وبالنصيحة تارة اخرى ، وبالخداع حينا ، وبالاغراء احيانا ، وكان وحده هو الكا[illegible]

الكل ، والباقون متحصنون اما فى المخابىء او فى المقابر أو فى المستشفى ، وخفف تصرفه الحكيم من حدة الحوادث ... ثم ذهبت الايام فاذا به يحاكم على انه ((تصرف)) واذا به يتلقى حكم ((الاعدام)) واذا بجثته يحملها فى الفجر اعوان السلطة فيلقونها تحت اقدام عياله وأولاده ليبحثوا لها عن حفرة !!.

الى رحمة الله أيها البرىء .. لم يكن الاعدام لجريمة وانما كان القصد منه ((الارهاب)) وصادفته القرعة ! ..

وقبضت السلطة على عدد وافر من الزعماء والاساطين الذين كانت مهمتهم فى أسيوط هى النصح والارشاد وكبح جماح الثورة والثائرين !

لم ؟! ...

صعب عليك ان تفهم منطق السلطة العسكرية ..

قاعدة قضائية عندهم لاتقبل مناقشة ولا لجاجا : ((أن من كان يملك النصح والارشاد . كان يملك منع الثورة فهو مجرم)) ! : !

وامتلأت السجون ، ولا أريد أن أطيل عليك الحديث فهو لاينتهى ...

أهرب ! ...

((أهرب)) ! ...

كلمة صغيرة فى ورقة صغيرة وجدها ((شكرى)) فى غرفته .. والخط كان خط ((مريم)) ..

((شكرى)) كان يعلم تمام العلم أن السلطة العسكرية كانت اذ ذاك سلطة غاشمة ، ويعلم أنه الف نشيدا القاه على آلاف المجتمعين فى الكنيسة يوم المعركة الاولى . وكان يعلم انه من السهل جدا أن يقال عن نشيده النارى انه المحرض الاول للثورة ، ويعلم أنه من الميسور جدا أن يكون الجزاء لهذا المنطق المتسلسل المنسجم انما هو : الاعدام ...

تراءى له هذا الموقف بكل مافيه من خطر وبشاعة وروعة ، فهل تدرى ماذا كان احساس فيلسوفنا الصغير الطائش نحو هذا الانذار

انه أخذ يقبل الورقة مثنى وثلاث ورباع ...

أليست من ((مريم)) ؟ ...

أليست من شبيهة « ثروت »؟ . . .
أليست من الصغيرة الناشئة العاطفة ؟ . . .
أليست تتضمن نوعا من العطف ومن الوفاء لا تسمح من الخوف عليه . . .
لا ، لا . . .

يجب أن يذهب توا للبحث عن « مريم » ليعرف منها التفاصيل التي تهدد حياته . . .

كانت هذه هي الحجة الظاهرة المقبولة . . .
أما الحجة الحقيقية فكانت فرصة للقاء . . .

***

هي : ألم تهرب بعد ؟
هو : وهل أستطيع ؟ !
هي : كيف ؟ بأية طريقة ! وفي الحال ! . . .
هو : وبدون أن أراك ؟ !

. . .   .

سكتت « مريم » عندما أبدى « شكري » هذا الاعتراض . ولكن الفتاة كانت جادة غير هازلة ، وفاضت عواطفها وأخذت تقبل يده بشدة قائلة : اهرب ! اهرب ! إنك في خطر . . .

قال : أين والدك ؟

قالت : ذهب ليبحث لنا عن وسيلة للسفر . سنغادر البلدة الكريهة في الحال

قال : إذن حق علي الهرب !

وتشجع فأخذ يدها اليمنى بين يديه ولكنها لم تمهله [illegible] برجولته وكبريائه . . .

قال : لعلي تجاوزت حد الأدب . . .

قالت : بل تجاوزت حد الجنون . اسمع يا « شكري » ليس الوقت وقت عاطفة . إنهم قد شرعوا يحققون في نشاطنا ، وعن قريب ينتقل منهم رجال التحقيق أبلغني هذا فذهبت إليك ولم أجدك وخوفا من ضياع الوقت تركت ورقة وكلمة . . . ثم اسمع ماذا فعلت بعد ذلك ؟ بحثت عن « المطبعجي » وعرفت اسمه ومكانه ، وقام معي فورا فأتلف المسودة التي بخطك وأتلف النسخ التي في عهدته . ثم مررت على بيوت زملائي بقدر الاستطاعة فمزقنا النسخ الموزعة

عليهن . ثم ذهبت الى المكتب فاخطرت « مصطفى افندى » الوكيل بالموضوع . ثم أوصيت قريبى الذى يساعد المحققين بك وبشبابك خيرا ...

قالت هذا كله بحماسة ورعشة ثم جلست على كرسي وألقت برأسها بين يديه فاذابهما مغمورتان بالدموع ! ! ! ...

* * *

ومرت لحظة ..

ثم انحنى الفتى العاطفى يلثم شعرها بفمه

ثم همس فى أذنها قائلا : اتركى نشيدى . وتكلمى عن قلبك وعن قلبى ...

قالت بعد تردد وصمت : دع الحديث عنهما للمستقبل ...

قال : انك قبطية ؟

قالت : ماذا تعنى ؟

قال : انني مسلم ...

قالت : لم أفهم شيئا ...

قال : هل يمكن ان نلتقى ؟

قالت : بعد أن يستتب السلام . ولم لا ؟

قال : لم تفهمينى . هل يمكن ان نلتقى تحت ظل عقد مقدس ! .

انتفضت الفتاة وقد توردخداها فتجلى جمالها القبطى وامتزجت حمرة اللون بضعف الخفر فكانت سحرا وسحرا « حلالا » ...

وتمتمت قائلة : شكرى ...

قال : نعم يامريم ...

قالت : النشيد !

قال : بل القلب !

قالت : أعد السؤال ...

قال : هل يمكن أن نلتقى تحت ظل عقد مقدس ؟

قالت : عندى الجواب . ولكنى ...

قال : ماذا ... ؟

قالت : خجول ...

قال : اذن لن أهرب ! ! !

قالت : اتوسل اليك ...

قال : حتى تجيبى . . .

قالت : اتعدنى ان انا أجبتك عن سؤالك أن تهرب فى الحال ؟ . .

قال : فى الحال . . .

قالت : أعد السؤال . . .

قال : هل يمكن أن نلتقى تحت ظل عقد مقدس ؟

قالت : نعم ! . . .

قال : وكيف ؟ !

قالت : . . . الدين هو القلب . . .

قال : اتسمحين اذن بقبلة ؟ . . .

قالت : هاكها . . .

وقبلها الفتى قبلة الطهر . قبلة جبانة خجولا مترددة زرقاء لم تستغرق ربع ثانية ! . . .

وانسحب مسلوب اللب وهو يقول :

— الى اللقاء !

وهى تجيبه :

— الى اللقاء ! . . .

* * *

عندما يقرأ القراء كتابى فقد تستفزهم بعض النتائج السريعة فى المواقف الغرامية والاجتماعية . هذا الوعد السريع بالزواج . وهذا الاتصال القلبى السريع بالفتاة القبطية ، قد يكونان فى نظر بعض القراء مأخذا ومحلا للنقد ! . . .

ليكن . . .

لست أدون وقائع خيالية من رأسى . ولا استمد تصويرها من خيالى . ولست انقل لكم المثل الصحيح للتجارب الصحيحة . وانما انا انقل لكم بأمانة حقيقية حوادث عادية وقعت بالفعل كما قدمت . . فى النسخة الاولى . . . ليفهم القراء جيدا اننى لست بالمؤلف بالمعنى الذى يفهمونه . فان كان ثمة ملاحظات فمسئوليتها على ابطالى . . .

واذا انا راجعت صديقى « شكرى » وقلت له : كيف يتحول قلبك فى مدى اربعة شهور او خمسة شهور الى فتاة حية . وقد دفنته بجوار فتاة ميتة ؟ !

قال وهو يتأوه : آه لو دخلت قلبى وفحصته لأنه ما نسى الميتة .

ولن يجحد الحية . ان «الزواج» يا صديقى هو علاج المنكوب فى الحب ، ان «الزواج» هو البعث وانه هو السلوى ...

ثم انصفنى وخبرنى . من أحببت ؟ أليست هى التى رحلت بنبدها وجمالها وروحها ؟ ثم ماذا أقول فى الخطر الذى جمعنى بها وعرفنى بشخصها ؟ ثم ماذا اقول فى عطفها وخوفها على . وفى لوعتها على حياتى ؟ ثم ماذا أقول اخبرا فى قلبى ؟ تالله لو اقنعتنى بانه جحد او خان لسحقته .. ولكنى اسائله فى ظلام الليل وفى هذا الخطر فيقول : هى ـ وهى ؟!!

وانى لقلبى مطيع !!!

تاجر الخمر ؟!

«عثمان افندى» ضابط بالمدرسة الثانوية . يساعد هو الآخر المحققين . ولكنه كان لا يسلو الخمر . فهو دائما ابدا مترنح . قابل «شكرى» فى المساء فمد «شكرى» يده لمصافحته . فقبض عليها وهو يهتز سكرا وذعرا وقال : الوداع ؟!

قال شكرى : من تودع ؟

قال : أودعك . لقد بدأوا ينحرون عنك وعن نشيدك ...

فى هذه اللحظة وفد احد القضاة ممن يحتلون اليوم منصبا من أسمى مناصب الدولة القضائية فنصح «شكرى» بالفرار فورا الى ساحل سليم . وأبلغه انه كلف من سعادة المدير بتبليغه هذا الانذار

قال شكرى : ان الفرار دليل الجرم . ثم بأى حق أنكب عائلة «محمود باشا سليمان» بجريمتى ؟ لا ، سأبحث عن طريقة أخرى .

وقام من فوره فبحث عن وكيل المكتب وسلمه أوراقه واشغاله ثم علم أن زورقا بخاريا سيقوم فى الصباح الى «ديروط» يحمل فرقة من الجند تحت رياسة احد الضباط الشبان ومعهم مرتبات المركز فقال فى نفسه : ان الشباب يحن الى الشباب . فلأحاولن ان أندس فى الزورق البخارى مع العساكر ، حتى اذا ما وصلت الى «ديروط» تابعت رحلتى على الركائب أو العربات من مركز الى مركز ، ومن اقليم الى اقليم ، حتى أصل الى بنى سويف . وقيل ان شركة «كوك» تنقل الركاب من بنى سويف الى القاهرة . حيث تنتهى رحلتى ، وتتحقق نجاتى !

وفى الصـــباح المبكــر نهض«شــكرى» متسلحا بالكتمان الى حيث يوجــد الزورق البخــاري والعساكر والضــابط الشــاب . وشرع الزورق يتحرك فقفز فيهولكنه لم يشعر الا والضــابط الشاب ينهال عليه بعصاه هــووعساكره ليحولوا دون نجاته !

وضاع الامل واضطرب برنامجالرحلة من أوله لآخره ..

وعاد بعــد أن ودع النجــاةليستقبل الخطر !!

وفى طــريق العـــودة وسطالمزارع ارتمى على جــذع شجرة يفكر فى شيئين :

(١) مريم ...

(٢) حياته ..

***

وكان التعب قد أخـــذ منهمأخذه . وشعر أنه فى حاجــة شديدة الى النوم . ولكن كيفينام قبل أن يطوف بدارالفتاة . واتجه نحو الدار فوجدها مقفرة . وعلم ان الاسرة القبطية رحلتالى مسقط رأسها

وعاد الى الفندق فوجد غرفتهلم تحتل بعد . ووجد على المنضدة ورقة صغيرة اخرى فيها هــذهالكلمات: «سيصلكرسولوخطاب عند وصولى باخبارى . أفدنىبأخبارك فان كنت قد ســافرت فاكتب الى بعنــــوان والــدى(... ...) لاطمئن علىسلامتك لك عواطفى وعهدى » ...

***

وكان الموقف يستلزم عمــلاحاسما وسريعا ...

ولكنه لم يوفق للعمل الحاسمالسريع فى اليوم التالى . بل شعر بوحشة لم يشعر بها طوال أيامهبأسيوط . فقــــد كان اخوانه الموظفون يتحاشونه ويتباعــدونعنه . اذ قد سرى بينهــم انه «محل تحقيق» ...

وفى المســـاء وفد عليه شابأسمراللون ، عصبىالمزاج ينتفض ذعرا . وتقدم الشاب فعـــرفهبنفسه بصوت خافت قائلا : انه قريب «مريم» ومساعد المحققين . ثم ساله بلهجةالخوف : الم تدبر أمرك بعد ؟!

قال : دبرت . وفشلت ...

قال : لايزال فى الوقتمتسعان أوراقك تحت يدى وسأؤخر

مرضـها . ولكن لاتطمع في اكثر من يومين أو ثلاثة أيام ... وانى أدناك على طريق . لقــد عادت قطارات السكة الحديد للسير . ولكنها قطارات حربية فقط تحتاج الى «جواز سفر» ...

قال شكرى : ولكن من يمنح الجواز ؟

قال : السلطة العسكرية

فضحك «شكرى» وقال : اذن ألجأ الى الاتهام فى فرارى ؟!

قال: انهم لم يعرفوا شخصيتك بعد . وانما الكلام حول النشيد وحول البحث عن مؤلفه . فعندك فرصة !

قال له : شكرا . كيف الاسرة؟!

قال : رحلت . ولكنى سمعت أن فى البلدة حوادث حصلت أمس واليــوم . وسأبلغك اياها ان تأخر فرارك ...

قال : بالله عليك لا تضن على بالتفاصيل . ثم ودعه شاكـرا وانصرف الشاب ...

***

كانت حالة «شكرى» النفسانية سيئة للغاية : فى البلدة حوادث! ولكن ما شأن «مريم» بها الا أن تذعر أو تخـاف . وقد ذعرت وخافت فى أسيوط . لا بأس !ان القطر كله حوادث ...

***

وتحرى «شكرى» فعلم حقيقة أن «القطارات الحربية» تسـير . ولكنه علم أن «ويصا بك» من كبار الوجهاء والاغنيـاء طلب جوازا بصفته قنصـــل أمريكا فرفض الطلب ... وان الحصار تام وانه من المستحيل أن يظفـــر بتلك الامنية ! ...

وأخـــرج « شكرى » أوراقه يفحصها ورقة ورقة ليعدم منها ما يمكن أن يكون محل شبهة . فوجد بينها « تذكرة العضوية » بناديه القاهرى الذى تبارى مع نادى أسيوط . وخطرت له فكرة طارئة فقال فى نفسه :«الانكليز قوم «سبورت» يقدرون الرياضة والرياضيين . والرياضة لا دين لها ولا جنسية . وهى تخلق بين جميع الاجنـاس والملل نوعا من التضامن والتساند والتعاون . فلنجرب تذكرة العضوية والهيـة الرياضية »!

وكان يعلم ان من بين مدرسى المدرسة الثانوية الانكليز مدرسا يدعى المستر «سنودن»

وكان يعلم انه أرتبط مع بعض اقاربه فى القاهرة بعلاقات صداقة

متينة . وكان يعلم انه لعب امامه فى المباراة التى حصلت بين نادى القاهرة ونادى اسيوط ...

وتشجع وذهب لزيارته وعرفه بنفسه وذكره بالمباراة ...

قال الانكليزى : كيف حال ابراهيم ، وحسين ، وكمال ... ؟

قال : جميعا بخير ..

قال : ما قرابتك بهم .. ؟

قال : أولاد أعمامى ..

قال : وما رأيك فى المباراة التى حصلت بيننا ؟

قال : لولاك يامستر « سنودن » لغلبناكم « دسته » ..

واستغل « شكرى » غرور الرجل وكان مبتدئا فى « كرة القدم » ومن السهل اغراء المبتدئين

وكانت النتيجة انه ارتاح لمحادثته وتبسط معه ثم سأله : « ولكن كيف لم تعد مع ناديك ؟ »

فأبرز « شكرى » تذكرة العضوية واطلعه عليها

ثم قال له : اريد ان تساعدنى فى الحصول على جواز سفر فى القطار الحربى . تأخرت عن السفر لان والدى انتهز فرصة سفرى لاسيوط فأعطانى سبعين جنيها لاشترى « حميرا » ، فاسيوط مشهورة بنوع « الحمير » ووالدى مزارع ..

قال : الم تشترك فى الاضطرابات ؟ ..

قال : وكيف ؟ انى لا اعرف أحدا هنا . وقد سافر اعضاء « النادى » وبعد يومين اثنين قطعت المواصلات . وأنفقت المبلغ ولم أوفق الى شراء « حمار واحد » . وأريد الان ان أعود ! ..

قال : تعال ..

وأخذه الى الضابط المختص ويسمى المستر « ترنك » وعرفه به . وفى الحال حرر له جواز السفر على الوجه الاتى :

(شكرى ..)

(تاجر حمير)

(يصرح له بالسفر على القطار الحربى باكر)

(وجهته القاهرة)

❊❊❊

والتقط « شكرى » الجواز شاكرا صديقه الانجليزى وهلل وهو يخفى السر على نفسه ...

تفتيش حتى الساعة الثانية صباحا

وجوب جلاء الذكور عند التفتيش

فى المساء نادى المنادون بأن السلطة العسكرية ستفتش البيوت حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ! ...

وان السلطة تأمر بأن لايكون موجودا عند التفتيش جنس « الذكور » ممن هم فوق الثانية عشرة ؟!

وان الطرق ستراقب ويفتش المارة من الان حتى الساعة المحددة ؟!

ماالفكرة فى ابعاد الذكور ؟!

روعت أسيوط كل الروع بهذا النبأ فهجرت الاسر المسلمة فى الحال منازلها وقضت الليل فى الجبانات على بعد كيلومترات ..

وهاجرت الاسر القبطية الى العراء على مسافات تتراوح بين خمسة عشر كيلو مترا وعشرين

وانتشر الذعر وفقد الناس الادراك خوفا على «الاعراض» !

***

العرض ..؟

وما مناسبته ... ؟

قالوا ان الذئاب الوحشية العسكرية سطت على الاعراض فى نواحى الاقليم . وهذا هو سر الهلع وسر الرعب وسر الفرار ؟

ولكن « شكرى » كان مشغولا برحلته فى الصباح على القطار الحربى فلم يعبأ بهذه الحكاية

ونشر الليل ظلامه على «اسيوط» الباكية ، ودقت الساعة الواحدة فكانت شبه خالية من العائلات . ووجدت السلطة انه من العبث تنفيذ الامر فعدلت فى اللحظات الاخيرة ...

ونام «شكرى» ليلته مضطرب النفس ، قلقا ، يستشعر نكبة ، ولكنه لايحس الا انها ستحل بشخصه

***

واخفى الامر عن أعز اصدقائه لامن ناحية عدم الثقة بالاصدقاء ولكن من ناحية عدم الثقة بشهوات الالسنة

وفى الساعة الخامسة صباحا نهض من فراشه وجمع حوائجه بنفسه الى القطار

وكان قد أرسل ورقة الى تريب « مريم » في الليل يخبره بنجاحه وسفره في هذا الميعاد

واخذ مجلسه في القطار في الدرجة الثانية او الثالثة لايدري ومن الضابط والجنود الانكليز يحدقون في وجهه لانه كان الغريب والمصري الوحيد بين الركاب

وأبرز لهم الجواز اكثر من عشر مرات فكانوا يقراون ويندهشون وفتشوه مرات كثيرة فلم يجدوا معه بالطبيعة شيئا ...

وصفرت القاطرة ...

وبدأ القطار يتحرك ...

***

يا الهي ..

ان القدر القاسي يتمخض عن شيء عنيف رهيب !

كان هذا شعور الفتى وقد أحس ظلاما في داخلية نفسه وهو يودع « أسيوط » المنكوبة

وتحرك القطار وسار متثاقلا من نافذة ليودع الذكريات الكريهة والمحبوبة

واذا به يرى رجلا يجري بسرعة على محاذاة القطار وهو يلهث من التعب ولسانه لايفتأ ينادي: الاستاذ شكري ... الاستاذ شكري ...

ويمد يده فيأخذ من الرجل ظرفا مجللا بالسواد ...

؟ !

. . . .

الظرف بلا عنوان ...

ممن يكون الخطاب ؟

وهذا السواد ؟ !

وهذه المفاجأة ؟ !

من يعلم بسفري في هذه الساعة الا تريب « مريم » ؟ !

يا الهي ...

هل ينعاها ؟ !

ويرتمي الفتى بعد هذه الخواطر السريعة وقد خارت قواه ثم تنتابه اغماءة : لا هي باليقظة ولا هي بالخامدة ..

والقطار يسير ...

والضباط تمر ذاهبة آيبة ..

وهو يفيق من المفاجأة ولا يملك أن يختلس فرصة لفض الخطاب ..

ولكنه يشعر أن فيه « نكبة » فيبكي لها سلفا وتحت الحساب ..

***

ويفض المسكين التعس الخطاب بيديه المتشنجتين فيجد الخط خط « مريم » دون أن يقرأ فيحمد الله

انها لم تمت ...

ربما كان الميت أباها أو أمها أو واحدا من ذوي قرباها ...

وينتعش قليلا ...

ثم يتشجع ويقرأ الكلمات الاولى في الخطاب وهاكها :

« **شكري** ...

حسنا . توجيه عادي فيه كلفة زائلة ...

ثم يقرأ الفقرة الثانية فتدوي في القطار صرخة داوية كالتي دوت في غرفة المكتب منذ شهور ...

ويسرع الجنود والضباط فيجدون الفتى نصف ميت فيتصدقون عليه بشيء من « الكلونيا » و « النشادر » ثم يعود اليهم بروحهم الانكليزي فيتوكوقه وشأنه ...

« **اعزيك في ثروت الثانية ! ...** »

« **لقد ماتت مريم !** »

يا له من غبي . استيقظ يا بني . وثب الى رشدك . كيف تصدق وفاتها وهذا نعيها بخطها . كيف تنبئك الميتة بأنها ماتت !!

يالك من متسرع . اقرأ اقرأ ! !

ويعاود الفتى ادراكه ، ويطمئن نوعا ! ثم اذا بصرخة ثانية أقوى من الاولى . واذا به يهجم على الضابط وعلى الجنود ينشب فيهم أظافره ويعض أجسامهم بأسنانه . ثم اذا به يتجه فجأة نحو النافذة يحاول القاء نفسه في عالم الفناء ! !

ويقبضون عليه بأيديهم الفولاذية فيسقط بين أيديهم على الارض فاقد الرشد مغمى عليه . . . .

***

ان بقية الخطاب كانت ما يأتي :

« **ان ذنبا اوسترالياً اغترسني ...** »

« حاولت الانتحار وسأحاوله ... »
« خطابك مفسوخة ... »
« الوداع يامسكين ... »

« ثروت الثانية »
« مريم ... »

. . . .
. . . .

عليك ...

فى حى شبرا شارع نسيت اسمه يتفرع من شارع « شكولانى » ..

المنزل نمرة ٤ فى هذا الشارع الذى نسيت اسمه منزل انيق ..

وفى ذلك المنزل الانيق ، وفى الدور الارضى ، غرفة كبيرة الجناح اعدت « للعليل » القادم من اسيوط ...

يتمتمص سكان المنزل حول باب الغرفة بحذر ووجل ، ولهفة وفضول ..

« شكرى » مريض !

مرضه : صفرة ، وهزال ، وشرود ..

الثمانون كيلو هبطت الى الستين ..

الدكتور « سليمان عزمى » يعود المريض صباحا ، ومساء ..

ويقول اصدقاء المريض الاطباء : انه « البرد الشديد » تارة ، او « الشراب تارة اخرى ـ او « الخوف » حينا ـ او « جو اسيوط » احيانا .

طبهم جميعا خائب : « شكرى » ما شكا بردا ، ولا شرب شرابا ، ولا شعر بخوف ، ولا تأثر بجو !

مرضه فى « القلب ، ولكنه مرض لم تكشفه يد طبيب ، ولم تنبىء به « سماعة »

كان المرض « ثروت » الاولى و« ثروت » الثانية !!!

* * *

كانت حكاية الحب ومآسيه بعيدة كل البعد عن اذهان افراد الاسرة ...

والعشاق نوعان : نوع فياض ، ونوع كتوم ! ...

وعند النوع الثاني العشق سر مقدس !..
وهؤلاء هم الذين يتعذبون..
وصديقنا كان من النـــوع الثـاني ..

❊ ❊ ❊

وكانت وطأة المرض عليه عنيفة : كان يجب أن يستلقي على ظهره في فراشـه وان يستريح ... وان لايتناول الا اللبن في الصباح، والظهر، والمساء . وكان يجب ان يدلك جسمه بالكاونيا بين حين واخر . ثم كان يجب ان لايتكلم !.. وكان هذا كل مايتمناه ..

وكان عذرا يختـفي وراءه . ويخفي سره المعروف القراء ..
ولكن كان لابد له ان يرسل تلغرافا ولمن ؟ ! لوالد مريم ! يا للحرج .
ماذا يقول ؟ ! أخذ هذه المضغة يفكر فلا يجود ... لكن كان لابد له ان يفعل . ويا لجرأة العشاق أخذ ورقة وسطر بعد العنـوان هذه الكلمات : « اطلب يد مريم . اريدها زوجة . أتوسل اليك . بلغها وانقذها . اعتذر عن الحضور بمرضى الشديد »
شكرى

وكان لابد له من رسول جاهل لا يقرا ليرسل التلغراف . وخادم المنزل توافرت فيه الصفة . فأعطاه التلغراف وزوده بالكتمان !

الاب والام !...

في ناد من أندية الرياضة . في مدينة من مدن الاقاليم . سالتني مسز « والتون » هذا السؤال : أيهما أفضل زوجي ، أم ابني ؟
قلت : لم أفهم سيدتي جيدا . عفوك ؟

قالت : المشكلة بيني وبين زوجي هي ماياتي . أنا وهو مقيمان في القطر المصري . وابني «دجلس» يتعلم في الوطن ، في انجلترا ... والولد في حاجة الى الاشراف والى الرقابة والى الاعـداد . وزوجي هنا محتاج لخـدمتي ... لمن اكرس وظيفتي ؟

قلت : لزوجك سيدتي ! وبلا تردد !

قالت : و «دجلس» الصغير !.

قلت : سيكبر ويترعرع ويشـتد ويكد ويكافح ويطمع ويطمح ويحب ! وهو في كل ادواره هذه لن يفكر في « الاب والام » الا تفكيرا ثانويا ..

اما مطامحه وميوله وكفاحه وحبه فستحتل المكانة الاولى في المنزل الاسمى ! ...

في « الابناء » عقوق طبيعي . وهم ان أدوا للوالدين الواجب فبالبعد المسافة بين عواطفهم نحوكم وعواطفكم نحوهم ازوجك أولى بعطفك وحبك وحنانك وولائك . وزوجك ابقى وأوفى . فكرسي وظيفتك المسكين . وحتى الابن للزمن ...

هذا « شكري » هل بكى لابيه او لامه مثل ما قد بكى لثروت والمريم ؟ هل فكر في ابيه وفي امه مثل ما قد فكر في ثروت وفي مريم ؟! وهؤلاء الكبار العظام هل فكروا في « الزوج العجوز » مثل ما فكروا في مطامعهم ووظائفهم ومرتباتهم وسعادتهم ؟!

الدنيا المادية لم تترك مجالا لعواطف الابناء نحو الآباء الا بقليل ولكنها لم تمس بحال نار الحب المشتعلة في صدور الآباء للابناء .

وتسائل الابناء الفلاسفة في هذا العقوق فيقولون لك بكل جرأة : لم يمن علينا الوالدان ؟ الا انها لحظة من لحظات اللذة والمتعة مضياها معا فجئنا الى الدنيا رغم انفهما وتحت ضغط البهيمية الحادة : فهي عملية تفريخ ...

فاذا ماذكرتهم بالعناء والتعب في عهود الولادة والفطام والمرض والتربية والاعداد : اجابوك بكل جرأة : انه واجب ترتب عليهما واثر من آثار الجريمة ...

فاذا ما لمحت لهم بالسعادة التي يتمتعون بها في الحياة وبالمراكز والمعيشة : أجابوك بكل جرأة :

أين هي السعادة ؟ ! ان الحياة مضنية متهكة فهي اساءة وليست احسانا ...

* * *

هذا العقوق الملموس المحسوس لم يغير من طبيعة الآباء نحو الابناء فبقيت كما شاء لها الله ، بلسما للجراح ، ودواء وشفاء للابناء المرضى ، والمنكوبين والمجروحين ...

وهكذا يقطع الفتى منا اشواطه المختلفة في الحياة فتتلقاه احضان وتهجره احضان ، وتنبذه احضان : فاذا ما صرعه الكر والفر واللف والدوران ارتمى في النهاية بين احضان الوالدين ...

وهي احضان لا تتعب ، ولا تخون ، ولا تكذب ، ولا تتنكر ، ولا تجحد ، ولا تتبدل ، بل هي تحت امر الابناء عندما يحل بهم الشقاء ...

هي الكيف ، وهي الملاذ ،وهي المخدر ، وهي المرقاة ، وهي الشفاء ! ! !

هي معبد التكفير عن الخطايا ،وهي مورد التوبة ، ومصدر الغفران . . .

❊ ❊ ❊

واذن الدكتور «سليمان عزمي» للمريض بعد شهرين أن يتريض ، وأن يسير باقتصاد ، وان يتناول الليمونادة ، والتمر هندي ، والبرتقال وغيرها من السوائل ،فخرج من سجنه يتوكأ على عصاه ويجلس في أقرب قهوة يقدم نفسه لاصدقائه من جديد بعد أن تغيرت سحنته وبرزت عظامه وغارت عيناه . . . .

أما نزهته فكانت الى مكتب التلغراف ، فهو لم يتلق ردا من والد مريم . فأخذ يرسل برقيات مختصرة مقصورة على السؤال عن الصحة تارة لابيها وتارة لقريبها صاحب واقعة التشييد . فلا يحظى برد ! . . .

السيدة مريم . .

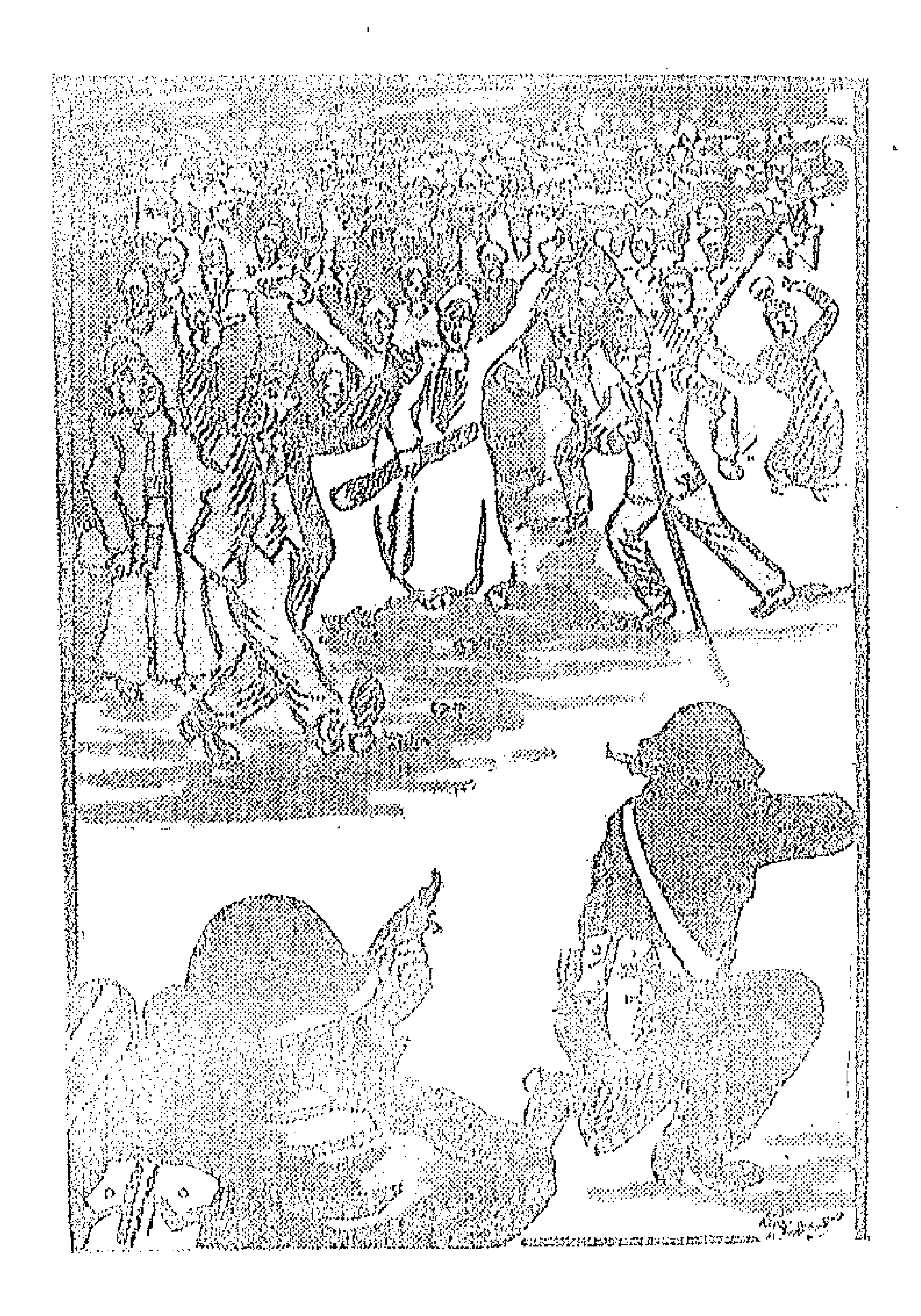
اشفق على القراء ان اروى لهم تفاصيل الافتراس ، وتفاصيل النكبة : وحش من وحوش الغابات لا من وحوش الادميين ، مزهو بقوته وحيوانيته ورصاصه وحديده ، هاجم بفرقته بيوت اعيان البلدة المفجوعة في الظلام بحجة التفتيش عن السلاح ، عثر على الفتاة في ركن من الاركان فأمر باعتقال الرجال وحجز باقي السكان في غرفة . ثم اختلى بالفتاة فكانت هي ، وهو ، والشيطان ، واخس ما في هذه الدنيا من نذالة وعفونة وسقوط ! . . .

ونشبت المعركة الحامية بين الذئب الضاري والحمل الوديع . . وماذا تنتظر ؟

ان في المرور بسرعة على تفاصيل الفاجعة بلاغة يخجل امامها البيان والاطناب . . .

ولن يقوى قلمي العف على الوصف وعلى الرواية . وأقر بعجزي وأفضل أن أسدل الستار . . .

وخرجت الفريسة النبيلة البريئة المختلسة من النضال



الرصاصة السريعة هى المحققه وهى الحاكمة وهى المنفذة • والقبور موجودة فى الطريق وفى الزواياوفى الازقة • • •

أصبحت ميتة، وقد شج رأسها وسال الدم على وجنتيها . وتركها الوحش الكاسر وقد فقدت حتى الامل في الامل ...

وجاء الاب من المتقل وزحفت الام من العجز وتجمع الاقارب والجيران فلما تبينوا الامر سقطوا صرعى أمام الفضيحة ! ! ! ...

والدم في الصعيد يغلي ويفور بغير منطق وبغير تفكير، فنازحف الرجال المنكوبون على المعسكر يحاولون الاخذ بالثأر فكانت فاجعة اخرى وكانت مذبحة ...

وعاد الاب كالمجنون يريد ان يثأر لعرضه . ولكنه لا يظفر بالمجرم اين هو ؟ ومن هو ؟ وكيف السبيل اليه ؟...

اذن ليلطمن وجهه ، وليضربن براسه الحائط ، ولكن كيف يشفي الغليل ؟!...

بالخواطر السوداء تنتاب فاقدي الرشد والمجانين . ان الرجل الثائر لعرضه يختطف سكينا ويشحذها شحذا ثم ينطلق كالسهم الى فلذة كبده . الى المظلومة . الى الجثة الممزقة الغالية الى ابنته مريم ... ثم يرفع يده هاتفا : ارحمني يارب . ثم يهوى بها للقضاء على الفتاة ...

وهو اذ يوشك ان يسفك دم ابنته بيديه . يشل القدر العادل هذه اليد الطائشة وليس بينها وبين الاحشاء الا ثانية ...

اما رسول العدل ورسول السماء فكان شابا قويا شهما ، قبض على الذراع باسرع من لمح البصر وانتفض كالاسد يزأر ويلود ! ! !

قال الرجل : انقذتها ...

قال الشاب : من ابيها ...

قال الرجل : وهل انقذتها وانقذت اباها من الفضيحة ؟!

قال الشاب : سافعل ...

قال الرجل : اترد العرض المنتهك ؟!..

قال الشاب : سأفعل !!!

وهنا يرتمي الرجل من الخذلان واليأس يبكي كالثكلى ، ويذرف الدمع السخين ...

***

وتنتبه الفتاة رويدا رويدا ثم تصرخ صرخة ما اشقاها وما أوجعها ... ثم تتوالى الصرخات بأنغام الدهشة ، والاسى ، والوجيعة ، واليأس ، وحولها سيول الدموع !..

الجو كله وجوم . ومن يستطيع ان يتكلم ؟ بأية لغة ؟ وبأى معنى ؟ . . .

ان المصاب يجل عن العزاء . .

الفتاة العظيمة التى كافحت كفاح الابطال ، واصيبت بالرضوض والجروح لاتخضع للنكبة ، بل تنتصب واقفة وتتمتم : ليس بى شيء . أريد ان اتقيأ ، سأذهب الى المرحاض . . .

وتذهب او تزحف الى المرحاض مبتسمة ابتسامة عذراء نكراء وبقفزة لم تدركها القلوب المحيطة بها وبمصابها . . . تصل الى المرحاض بسرعة البرق الخاطف ، فتقبض على زجاجة « حمض الفنيك » وترفعها الى الفم الانيق وتوشك ان تتجرع الـ . . .

ولكن الشاب القوى الشهم رسول العدل ورسول السماء شل يدها كما شل يد ابيها . . .

وهوت الزجاجة على البلاط تتهشم وتسيل ! . . .

ثم حملها بين ذراعيه الى غرفتها واجرى لها بقوة الايمان الاسعاف بالرغم منها . ثم ارصد عليها وعلى أبيها الحرس وغاب لحظة ثم عاد ومعه قسيس ؟ . . .

***

وفى وسط هذا المأتم يتقدم الشاب القوى الشهم رسول السماء الى أبيها طالبا يدها

ياللمفارقات! ويا للمتناقضات! ويا للمفاجآت ! . .

الشاب أستاذ مدرس يحمل أرقى الشهادات ويرتفع بنسبة وحسبه على أقرانه . فهو مطمع كل عروس . وأمل كل أب وأم

ولكن الاب يجيب الدعوة النبيلة بالرفض النبيل . . .

ولكن الفتاة تستقبل هذه البشرى المنقذة باللطم وبالعويل .

يا أرق وأرقى العواطف المتبادلة : علتاك أن فى طريقك كرامة ! وفى طريقك تضحية ! .

الشاب يضحى . . .

والاب والفتاة تحت ضغط الكرامة يأبيان التضحية ! . . .

ولكن هذا الشاب الجبار كان مستعدا لكل معضلة ، هاهو ذا يوجه للاب السؤال الحازم : أمصر أنت على الرفض ؟ . . .

فيجيب الرجل : بدون تردد!

فيقول الشاب : اذن وداعا .

وتنطلق من مسدسه على رأسه رصاصة تخيب ولا تصيب ! ..
وينخدع الرجل بهذه المناورة المسبوكة فيقبض على يد الشاب ويهتف : قبلت ! قبلت ! ...
وينقلب المأتم الحزين عرسا حزينا ، ويتولى القسيس عقد الزواج ومريم مستسلمة ؟! ..
وهكذا يبر الشاب بوعده فينقذ العائلة من الفضيحة ويرد العرض المنتهك ... ...

واجبي !...

الهزيل العليل خريج المرض يتوكأ على عصاه ويسير ببطء الى قهوة منعزلة في حي شبرا وكله هواجس وأفكار ...
انقطعت صلة «شكري» بالآنسة «مريم» وباخبارها من يوم أن أرسلت له الخطاب الاسود • وكل ما يعلمه هو ما ورد في ذلك الخطاب المشئوم : «أن وحشا اوسترالياافترسها ــ وانها حاولت الانتحار وستحاوله ــ وأن خطبته مفسوخة»
لم يتردد الشاب الاصيل في أن يحول قدر ما يستطيع دون محاولة الانتحار • ولم يتردد في اختيار الموقف النبيل • فارسل تلغرافه الى والدها يطلب الزواج من المنكوبة في أعز ما تملك ويتوسل الى الوالد في انقاذ الفتاة ولكنه لم يتلق ردا ...
وكانت في الواقع مجازفة صبيانية من «شكري» • فان خطبة تعرض بالتلغراف لهي خطبة عجيبة ! ثم ماذا يعلم عنه والد «مريم» ؟ ماذا يعلم عنه ، وعن كفاءته ، أو ديانته ، أو حيثيته ، أو أسرته ؟! لا شيء ...
ولكن ماذا كان يستطيع أن يفعل المريض طريح الفراش الواهي القوى • ماذا كان يستطيع أن يفعل للحيلولة دون نكبة الانتحار ولتحديد موقفه ازاء الفاجعة ؟!
لا شيء الا ما فعل ...
ها هو ذا اليوم قد استرد شيئا من عافيته • وأصبح كفئا نوعا ما للسير .. وللبحث .. وللتحري !
ولكن التلغرافات المتوالية التي لم يتلق ردا عنها ماذا كان مصيرها ؟ وماذا كان شأنها ؟ وهل كان أهمال الرد لنكبة وكارثة ؟ أم لاحتقار وازدراء ؟ أم لمجرد الاهمال ؟

أخذ يفكر ويفكر حتى كشف الغبي فجأة انه في منتهى الغباء ! كان امضاؤه الكريم على التلغرافات «شكرى» ؟!

ومن هو «شكرى» هذا من بين سكان القاهرة . وما هو لقبه وعنوانه ؟!

اذن «مريم» معذورة ووالدها معذور . واذن فعل التلغراف الاول فعله بما فيه من انذار بعدم الانتحار . وبما فيه من نبل وتضحية بطلب الزواج ...

فلم يبق عليه الا أن يذهب .

***

ورد التلغراف على والد «مريم» بعد عقد الزواج بأيام . فلم يفهم منه شيئا ...

انه لا يعرف «شكرى» هذا ولا يذكره . هل يعرض البرقية العجيبة على زوج ابنته ؟ لا ! ... انها سخافة وحماقة . ففيها وحولها ما يمس كرامة الزوج الشهم وما قد يمس كرامة الفتاة .

اذن «مريم» وحدها التي تعرف السر ...

ويذهب الوالد بتلغرافه الى الفتاة ـ وهي لا تزال تئن من الجروح والرضوض ومن تأثير الحوادث المفاجئة ـ فيقرأه عليها فتنتفض مضطربة وتصدر زفرة حارة تعقبها دموع ...

ـ ماذا يا ابنتي ؟

ـ لاشيء يا والدى . ان في الدنيا أخلاقا ! ...

ـ من مرسل التلغراف ؟

ـ منقذى في أسيوط ! ...

يذهل الوالد هنيهة ويعاود ذاكرته . ثم كأنه يلحظ ما التاعت كريمته من ذكريات اليمة . ثم كأنه يدرك انه لا يدرك شيئا فيفر من التفاصيل فرارا ويسألها :

ـ أترد عليه بالشكر وبأنك قد تزوجت ؟ !

فتبتسم الفتاة ابتسامة صفراء منكرة . وتغطي وجهها بيديها الهزيلتين وتستغرق في التفكير وقد تجلى أمام عينيها الموقف المدهش العجيب : كارثة ـ وزواج ـ وخطبة بعد الزواج ـ ونبل من الزوج ـ ونبل من الخطيب الغريب !؟

ويحدق الوالد في التلغراف ثم يصيح فجأة : من هو شكرى هذا انه بلا لقب وبلا عنوان . فماذا نعمل ؟ !

قالت الفتاة : لاشىء ياوالدى ، لننتظر ولنفكر ...

* * *

وهل تدرى فيم كانت تفكر « مريم » ؟!
فى الانتحار وفى الانتحار دائما .
انها بين نيران ثلاث :
نار الكارثة — ونار الزوج الشهم — ونار المحب الوفى ! ! !
وكيف توفق بين هذه الاوضاع المتباينة . ان شخصيتها هى الاساس . فاذا انعدمت هذه الشخصية استراحت وأراحت .
ولكنها تريد الانتحار كاملا شرعيا فى انتحار . وهى لاتملك الوسائل وهى على السرير . فلتصبر حتى تملك شيئا من قواها . وحتى تستطيع ان تختار اسهل واسرع وسائل الهلاك ...
ان الصغيرة الواهنة الهدمة ضعفت عن ان تقاوم جيوش الهم والغم والذكريات والمواقف الفذة المتناقضة . فاشتد عليها المرض وحمدت الله على اشتداده راجية ان يكون فى « الموت الطبيعى » خلاص من « الموت الصناعى » وخلاص من كل مافات ...
واجتمع الاطباء وتشاوروا وتداولوا فقرروا نقلها فى الحال الى المستشفى فى اسيوط ...
وحملها الاب المسكين . والزوج الشهم الى مدينة الذكريات الاولى . الى مدينة الاحلام والآمال ...

. . . .

. . . .

رحـــلة ..

« شكرى » يستأذن والديه فى الغياب يومين او بضعة ايام عن القاهرة . فهما يسألانه عن السبب فيقول : انها « رحلة » ...
رحلة لترويح الخاطر واستنشاق الهواء الطلق بعد المرض ... فى محنته . ولكن اين ؟
والجواب ليس من الصعوبة بمكان . انه يستطيع ان يلفق اكذوبة محبوكة يتخلص بها من التحقيق وقد فعل ...
و « الشنطة » الصغيرة الحجم التى اختارها ابدت دعواه . وقد وضع فيها بعض الحاجات الضرورية لفسحة قصيرة . وستعرض بعدها لهذه الحاجات الضرورية فى الحين المناسب . اذ كانت بينها

« حاجة » تلفت النظر وجدت ملفوفة دستها بين البيجامة وفرشة الشعر ومشط الشعر ومصحف صغير فيه كلام الله .

***

وهو يطلب عربة ويساوم الحوذى على الاجرة بحساب الساعة . اذن له جولة فى القاهرة لايعلمهاالا الله ، وهو !

ويقبل والديه واخوته واخته الصغيرة . ولكن مابالك يضطرب نوعا ما !!.

لاشيء . انها الرحلة القصيرة . والرحلة القصيرة بعد المرض الطويل ...

***

ويسير الحوذى مسافة امتارثم ينحرف الى اليمين فى شارع شكولانى ثم الى اليسار فى شارع شبرا ثم يستمر ويستمر طويلا حتى يصل الى ميدان «الاوبرا» ثم ينحرف الى اليسار حتى يقف امام محل « يلدز » الحلوانى ..

« يلدز » !؟

هل يذكر القراء ان هذا الاسم مر عليهم وهم يقرأون هذه القصة؟! اين ؟ وفى اى موضع ؟

نعم ...

فى السنة الماضية ، سنة ١٩١٨ . فى الساعة الثالثة بعدالظهر ، فى ساعة القيلولة أو قبل الغروب ...

عندما كان يحمل من ذلك المحل هدية متواضعة لصديقة النهار ، المرحومة « ثروت » !

وهاهو ذايشترى بعض الفطائر بغير ترو وبغير تدقيق لا فى الصنف ولا فى الثمن . والعامل « الرومى » مذهول يقترح فيجاب اقتراحه ، حتى تتم عملية الشراء والدفع . فيحمل الحمل الخفيف الثقيل الى العربة ويأمر الحوذى بالذهاب الى بائع زهور فى شارع المغربى فينتقى الزهور الحزينة الباكية .. ثم يأمر الحوذى بالذهاب الى سوق الخضار بميدان العتبة الخضراء فيشترى فاكهة الموسم بجميع انواعها ... حتى اذاتمت له كل هذه الصفقات وجلس فى العربة سبح فى بحر الخيال ...

ويلمح الحوذى ذلك الشرود فينبه الزبون بهذا السؤال :

— الى اين ياسيدى ؟!

فيجيب : الى جبل المقطم ..

***

هذا قبر القتيلة ! ...

وهذا القاتل ! ...

موقف من أتعس المواقف البشرية . وان الزيارة هي الاخرى في القيلولة وقبل الغروب ... وتغد الذكريات تزاحم الذكريات ثم تنتهي الى المصرع ! ...

ويقف « شكري » جامدا ثم يرتمي فجأة على القبر واهي القوى ، مضعضع الحواس حتى يأتي حارس القبور فيعنى به ويقدم له الماء ... ويظل فتانا شاردا ذاهلا ثم يصيح : « رحماك ثروت » ...

ثم يتطلع مستنجدا بحارس القبور ويشير الى زهوره ، وفاكهته ، وفطائره ... فيتولاها ناثرا الاولى على القبر ، وموزعا الثانية والثالثة على الفقهاء الذين أقبلوا مسرعين كأنهم على ميعاد ! ...

ويرتلون ويقرأون ويدعون ويترحمون ...

ثم يشير اليهم الحارس بالانصراف وينسحب على مقربة من القبر ، ويترك القبر ومن فيه لزائر القبر ! ...

يطيل الكتاب القصصيون في أمثال هذه المواقف ، كفاءة لا املكها أو هي صنعة لا أحذقها ، ولا أفهمها أيضا ، وانا قانع بان أوجد قرائي حيث يوجد ابطالي . ثم لا يحتمل الموقف بعد هذا اطنابا ولا تفصيلا ، شاركوا المؤلف في تصويره ولا تكلفوه عناء في ابرازه جملا وكلمات وصياغة . هي حالة نفسانية أحسها كما تحسونها انتم . أليست شجنا وحزنا ودموعا ، وأنات وحسرات وأسى ؟!

ثم في الموقف شيء من الوفاء . وفاء المحبين الاحياء للمحبين الاموات !

رحمة الله على ساكني القبور ...

انهم لا يطالبون الاحياء الا بالذكرى ...

وهاهو ذا « شكري » يذكر « ثروت الاولى » . قبل ان يرحل الى ثروت الثانية ...

... بل نعيش !!!

طالت زيارة القبر ...
ما العمل ؟
أيعود الى المنزل وقد ودع من فيه ؟
أم يسافر فى قطار الليل فيصل فى نصف الليل الى البلدة الصغيرة فيكون محل ريبة وموطن شبهة ؟
لا . ليقض الليلة فى فندق على أن يأخذ قطار الصباح ...

* * *

ويبيت فى فندق حتى اذا ما اصبح الصباح نهض يعيد نظرة على الحاجات التى فى « شنطته » ...
كل ما فيها مألوف يعنى بوضعه كل مسافر فى رحلة قصيرة ، ماعدا زجاجة صغيرة فيها مسحوق ابيض ؟ ! !
هذه هى « الحاجة » التى قلنا عنها انها تلفت النظر ، والتى قلنا عنها انها وجدت مدسوسة بين البيجامة وفرشة الشعر ومشط الشعر ومصحف صغير فيه كلام الله ...
ان هذه الزجاجة الصغيرة ذات المسحوق الابيض كانت محل عنايته وحرصه . والمسحوق الابيض كمية صغيرة . فما هو ؟
لعله « شبكة » الخطبة . أو هدية العاشق للمعشوقة ؟
سنكشف امرها بعد حين ...

* * *

— (...) من فضلك
ويقطع « التذكرجى » التذكرة الى (...)
وينزوى « شكرى » فى ركن من الاركان يحدق فى المصحف الصغير ويتلو كلام الله
ويصفر القطار . ثم يسير ...

* * *

السفر طويل . بماذا يقطع « شكرى » الوقت ؟
لقد تلا كثيرا من كلام الله
فليفكر فيما هو ذاهب اليه . وفيما عساه ان يسمع ويشهد :
« لئن وجدتها فارقت الحياة منتحرة . فعندى الرد السريع !

« ولئن وجدتها على قيد الحياة فسأطلب يدها . وهى لن ترفض .

بقى أبوها وبقيت مشكلة الاختلاف فى الدين ...

« والقلب هو الدين . هكذا قالت هى ! فهل يقول أبوها مثل ما قالت ؟ !

« استبعد ! واذن ما العمل ؟هل تفر معى ؟ نذالة وخسة وجريمة ليست فى عرفنا ولا فى عرف التقاليد ...

« واذا وجدتها قد نسيت عهدها وعهدى فماذا افعل ؟ !

لا شيء ... انسحب مقهورا واعود بعد ان اكون قد سجلت وفائى وواجبى ! ...

« على الفروض الثلاثة : انى لتعس ! ... »

ويغزوه النعاس ولكنه لا يكتحل نوما . فان أفكاره . وحركة القطار ، وجلبة المحطات . وعدم توافر الراحة . وثرثرة الركاب . كانت كفيلة باقلاقه من حين الى حين ...

وهو فى كل انتباهة يقلب المسألة على وجوهها فلا ينتهى إلا الى الفروض الثلاثة فيقول : انى لتعس ...

❊ ❊ ❊

يا عجبا ! ...

أتدرى وقد وصل بعد طول السفر وطول التفكير ماذا قد خطر بباله ؟ ..

ان لا ينزل وان يعود ! ..

خاطر التردد هذا لا يرد عليه الا بعد ان يتجلى له ميدان الموقعة ..

ولكنه ينزل اخيرا .. وهو يرتعد من هول ماقد يسمع !

ويحوط ويحوط « الشنطة » التى بيده الشيالون ، فيسأل أحدهم باضطراب ووجل وتوسل :

ـــ هل تعرف منزل « فلان افندى » ؟ ..

فيجيب الشيال : فلان افندى ؟ !

فيقول « شكرى » : نعم ابو « مريم » ! ..

فيجيب الشيال : اه .. مريم . ولدى ! ربنا يشفى ..

ويطمئن الفتى ويحمد الله . انها لم تمت ! ..

ويقفز امام الشيال من شدة الفرح فيوقفه هذا وينبئه بانها فى المستشفى باسيوط ..

وهنا يصفر القطار مؤذنا باستئناف السير، فينتفض منطلقا في الحال ويرمي الى الشباك قامة فضية ويستأنف السفر ..
الى اسيوط

. . . .

. . . .

كان يجب على « شكري » ان يتنكر . وان يبالغ في التنكر ..
انه معروف في اسيوط : في الدوائر القضـــائية وفي دواوين الاسر الكريمة ...

وكان لا يعنيه ان المحاكمات دائرة . وان تشبيهه كان محل تحقيق بقدر ما كان يعنيه ان لا يمس مركز « مريم » واسرة « مريم » بسوء ..

انه كـان يجهـل كل شيء . والظهور قد يجر الى مشاكل . فالحكمة تقضي بان يتوارى قدر الاستطاعة حتى يؤدي مهمته .

وقد وصل في النهار . ولئن كان المرض الطويل قد غير ملامحه فقد كان من الممكن ان يعرف وان يكتشف ..

لم تكن له الا وجهة واحـدة : المستشفى ..

وله في المستشفى طبيب وصديق . اختار ان يجعله موطن السر . ووسيلة الوصول الى المريضـة ..

اخفى وجهه بقدر الاســتطاعة وركب عربة الى مسكن هـــذا الصديق وكان يسكن وحده هو وخادمه . فلما وصل طرق الباب فوجد كل شيء لم يتغير . وشاء الحظ الحسن ان الخـادم لـم يعرفه ولم يذكره فسأله عـــن سيده فقال : انه يستريح في غرفة النوم ....

وجلس في غرفة الاستقبال . ولـم تمض دقـائق حتى حضر الصديق الطبيب : شاب من سنه ومن وسطه . وزميل مــن زملاء المدارس الثانوية الاعزاء ..

وهذا ايضا لم يعرفه الا بعـد محادثة قصيرة

— شـكري ! ..

— انا هــو ..

— كيف ! لقد تغيرت كثيرا انك مريض

— نعم ! ومهدم

— دعنا من المجاملات ، لم جئت الى اسيوط وحكاية تشـبيهك لا تزال حية !

ـ الضرورة احكام ، وانا فى حاجة فعسوى اليك ..

وجلس الصديقان احدهما ماخوذ بالمفاجاة مشفق ، والثانى متحفز يود ان ينهى مهمته ..

ـ أنت فى حاجة الى الراحة بعد السفر ، والى الطعام

ـ اما الطعام فليست لى به حاجة ، تناولته فى القطار ، واما الراحة فأشعر حقيقة اننى محتاج اليها يا دكتور

ـ اذن تفضل

ويذهب به الى غرفة نومه فيقول له « شكرى » :

ـ متى تذهب الى المستشفى ؟ !

ـ عندى « نوباتشية » الليل ، من الساعة السابعة مساء ، وسابيت هناك ..

ـ هل عندكم فتاة ؟ !

ـ كثيرات ...

ـ فتاة اسمها « مريم » !

ـ اه .. ! المسكينة

ـ اهى فى خطر ؟

ـ زال الخطر الجسمانى ، وبقى الخطر النفسانى ..

وحينئذ يهتز « شكرى » هزة جدية ، ويسائل صديقه بلهجة حازمة عن ثقته فيه وفى اخلاقه ورجولته ، فيؤمن هذا وقد تاثر من لهجة الكلام واسلوب التعبير ...

انا محام وانت طبيب وكلانا موطن للسر وللكتمان ، ايضيرك او يضير واجبك ان تجمعنى بها منفردين فى اية فترة من فترات الليل او النهار ؟ ..

ـ لا ، انى اثق بك تمام الثقة ، ومن السهل ان تراها وحدك بعد الساعة السابعة وستذهب معا ..

ـ اشكرك ، انك تعاون فى امر مقدس ياصديقى ، وامهلنى اخبرك بالتفاصيل بعد المقابلة ..

ويقترح الطبيب الشاب على « شكرى » ان يبقى فى المنزل حتى يحين الميعاد ، ويستطيع ان يقطع الوقت فى القراءة وفى الاستراحة حتى يعود اليه ، ثم يرتدى ملابسه ويخرج ...

***

وفى الساعة السادسة يصلح « شكرى » من شأنه قليلا ، ويصل

صديقه الطبيب وقد استرد طبيعته المرحة فيمازح « شكري » ولكن هذا يجاريه بتكلف . فيقول له : انك متعب يا « شكري » وليست هذه عادتك . امغرم بالفتاة انت ؟

فيجيب : ستعرف كل التفاصيل فلا تتعجل ! . . .

ويصلان الى المستشفى ويدخلان غرفة الطبيب الخاصة وقد شمل المستشفى سكون يناسب الموقف المقبل . . .

***

ويدق الطبيب دقة رقيقة على باب غرفة المريضة ثم يدخل .

— كيف حالك الان ؟

— احسن . . .

— ان حرارتك عادية منذ ايام . وقد التأمت كل الجروح . وسنأمر بالافراج عنك بعد قليل . . .

— اشكرك . . .

هنا يلتفت الدكتور الى الممرضة فيصرفها بحجة لاتثير شكا . .

— في غرفتي زائر غريب يريد ان يراك . . .

— زائر غريب ؟!

— نعم شاب من سني . يقول انه يعرفك كل المعرفة . وهو صديقي . وهو مريض . فهل تقبلين زيارته . وهل تعدينني بان تحسني استقباله ؟

وهنا تنتفض الفتاة وتجلس بحركة عصبية سريعة قائلة :

— هو ؟! . . .

ويلاحظ الدكتور هذا التطور المفاجيء فيزداد دهشة من هذه الالغاز . ثم يلاحظ من ناحيه اخرى ان الفتاة مضطربة مرتبكة فيخشى المسئولية ويجمد في موقفه . . .

— انا لا افهم شيئا ولا اعلم شيئا . ظننت انني اقدم خدمة . فان لم يرق لك استقباله فلن يحضر ! . . .

الفتاة لاترد . . .

والدموع المتساقطة لاتنبيء عن رفض او عن قبول . . .

وتهذي الفتاة فتقول : لا لا الا اقابله . . .

ثم تقبض على يد الدكتور وتقول : لا لا ! بل يحضر . . .

ثم تعود فتتوسل اليه ان ينتظر لحظة حتى تفكر وتبت . .

ويطول امد الانتظار ثم تلقي الفتاة براسها على الوسادة وقد

ضعفت واستسلمت ، وبصوت خافت تأذن بدخول الزائر الغريب

***

ويتسلل « شكري » الى الغرفة تسلل اللص الشريف ذي العاطفة ويوصد الباب ...

يتقدم خطوة ويتقهقر خطوة وهو لايكاد يحفظ توازنه ..

الفتاة تخفي وجهها وعينيها بيديها ...

هو يلقي بنفسه على كرسي بجوار الفراش ...

وتمر لحظة سكوت وارتباك ...

وتخرج كلمة مكتومة ضعيفة متقطعة مهتزة هي : مريم ...

ويرد الصدى : شكري ...

نعم : هما مريم وشكري قد تقابلا اخيرا وتهامسا بالاسمين . ثم ماذا ؟!..

من يشرع منهما في الحديث قبل الاخر ؟..

ان مهمة الفتى اهون من مهمة الفتاة : عنده الامل . وعنده الحب . وعنده النبل . وعنده الواجب وعنده الوفاء !...

اما هي فماذا عندها ؟!

عندها اليأس . وعندها الكارثة وعندها المفاجأة التي تهد رواسي الجبال . والتي تسحق قلوب ذوي الحب وذوي الوفاء !..

ويتشجع الفتى الذي يجهل ماحدث ويطاوع قلبه فيحنو على صديقته يحاول ان يقبلها في جبهتها فتحول بين شفتيه وبين الجبهة بشجاعة المرضى وذوي السقام ...

هي محقة : انها ليست له ولن تكون له . هي اما لزوجها . واما للقبر . ولا ثالث !..

والمسكين لايدري . يظن ان الكارثة التي حلت بها الفت في روعها ان ترفض حبه وقلبه . فيعاود الكرة وتعاود هي الكرة ..

ويأبى القدر الا ان يحسم الموقف في هذه اللحظة . فيدق الباب وتدخل ممرضة فيتقهقر « شكري » بكرسيه خطوتين ...

وتقول الممرضة : ان « زوجك » ياسيدتي يستفهم عن حالتك الان بالتليفون ...

فيصرخ « شكري » هاتفا : زوجك ؟!

فتنسحب الممرضة ويخيم السكون ...

. . . .

. . . .

ان المريضة الكريمة فهمت واجبها بسرعة البرق بعد هذه المفاجأة انها رغم هزالها وضعفها تقفز من سريرها الى حيث يجلس الزائر الغريب ...

واين هو ؟

انه موجود . ولكنه غائب !!!

هيكل من الهياكل البشرية بقي حيث وضعوه . لا يتحرك ولا يتنفس ولا ينظر ولا يسمع . أو هو تمثال من التماثيل غير الناجحة لا يرمز الى جمال او فن او معنى، وانما هو قطعة من الجماد في شكل انسان ! ...

والفتاة ؟

أتستغيث ؟ اتطلب النجدة ؟ لا . انها تلجأ الى انكلونيا فتدلك بها وجهه ويديه بحنو وعطف وشفقة وكرم ...

ثم تناديه من أعماق النفس المعذبة : شكرى !

ويجيب « شكرى » النداء فجأة . ثم يتماسك ويقف مجاهداً ثم يتقهقر خطوتين . وترتسم عليه امارات الخجل القاسي والارتياع اللاذع والاحتشام الموجع . ثم يتمتم بهذه الكلمات :

— اعتذر ياسيدتي . اغتفري لي جراتي . لم اكن اعلم ..

ثم يخفي وجهه بين يديه ويتقهقر نحو الباب ...

ولكن « مريم » لاتتردد . وبالصوت القديم الخالي من الكلفة والمفعم بالعاطفة تامره ان يبقى وان يجلس ...

هو يتردد ... ولكنها تكرر الامر بلهجة احزم فيستسلم

***

ان الصدمة كانت قاسية على « شكرى » . لم يستطع ان يتكلف في أول الامر وان يتصنع . اتضح له الموقف بغتة وبسرعة فقلب خطته راسا على عقب . ولكنه الهم موقف الاعتذار والاحتشام فجاء ملابسا للاكتشاف مناسبا للطارىء المفاجىء متسقا مع الواجب ...

وبدا يشعر انه غريب ..

ثم بدأ يشعر انه يرتكب جريمة ادبية ببقائه في هذه الغرفة

ثم بدا له ان الموقف حرج . وان الوضع غير طبيعي . وان المركز دقيق ...

و « مريم » النبيهة الذكية تلاحقه في خواطره هذه فتقطع فترة الارتباك قائلة :

— هون عليك . ستطيع ان تتكلم طويلا ...

ثم تروى له الحوادث التى مرت . اما نكبتها فتمر عليها مرا سريعا بحركات عصبية سريعة ويساعدها « شكرى » بملامحه الحزينة وتوسلاته الرقيقة بأن تنتقل من موضوع الكارثةمخففا لوعتها وألمها الدفين بعبارات المواساة البليغة خاتما جهده بقوله : هى ارادة القضاء والقدر وأنت مؤمنة فاخضعى ! ...

وتنتقل مريم الى موضوع الزواج ومناظره السينمائية السريعة ولا تضن على الزوج الشهم رسول السماء بتقرير الواقع فيتأثر « شكرى » كل التأثر من رجولة غريمه ونبله وبطولته ، فيمد يده الى الفتاة ويصافحها وقد استعاد رجولته هو أيضا ويقول :

« اهنئك من صميم قلبى . ان زوجك لرجل . وأؤكد لك يامريم اننى شعرت الان بشىءمن سعادة النفس وراحة الضمير .. »

قالت وقد أتمت مابقى من اخبارها واخبار مرضها : « انك لمخطىء . ان الشاب تحت تأثير الحادث الفاجع ثارت عواطفه فأقدم على عمل من اعمال الخيال وعلى مجازفة من مجازفات الروايات ، وعلى ضرب من ضروب البطولة التى تقرؤها فى أساطير الاولين . لم يخترنى كما يختار العريس عروسه . وانما كان الامر أمر دقائق ... وانه لمغبون !.. »

ويحاول « شكرى » أن يعترض وان يحتج وأن يناقش . فتنظر اليه نظرة حادة قاسية وتقول : « اسكت ! اسكت ! لاتقالط ايها التعس أنت أيضا ... جئت الى وأنت مريض منهوك القوى مضعضع الحواس لماذا ؟ ماذا بقى لى من صفات العذارى واحسرتاه ؟ ... ماذا فى من جاذبيات الفتيات وقد دمغت الدمغة التاريخية الخالدة ... لا لا ! لا تغالط ... جئت انت أيضا لتؤدى الواجب . لانك شاب نبيل ... مصابكما — أنت وهو — انكما على خلق . أنتما تعطفان وتحسنان على منكودة .. »

وتبكى الفتاة بكاء مرا فلايملك « شكرى » الا ان يقبل يدها ويبكى هو أيضا ...

— اقسم يامريم أنك مخطئة . اطردى تلك الهواجس واعلمى انك ضحية من ضحايا الثورة ، وفريسة من فرائس الامة المظلومة هيا . هيا انهضى فحولك تقديس وحولك قلوب ...

قالت وقد قبضت على يده بشدة وقسوة وضغط : « اسمع ! لن اكون له . ولن أكون لك . سيحظى بى القبر فهو عريسى وزوجى فهيا انصرف فى الحال وترحم على ! . . . »

وتلمع عينا شكرى لمعانا غريبا ! . . .

ان هذا التصريح الخطير لم يهزه ولم يفعل فعل الصواعق على الرءوس . .

انه صمد وثبت . وبكل رزانة واتزان وتؤدة قال : احسنت ! نعمت النهاية . . .

أخذت الفتاة بمظهره الهادىء وراعها الرد الذى لم تكن تتوقعه .

— أتتهكم ؟! أم تظننى طفلة ؟!

قال : « لا ياصديقتى . لا يتهكم الناس فى مثل هذه الحالات المظلمة الحزينة . انا جاد لا هازل ! . . »

والفتاة بالرغم من أن قرارها الجهنمى يصادف القبول تزداد دهشة . . . ثم تزداد جزعا . ان « شكرى » لاتنم هيئته ، ولا لهجته ، ولا جملته ، عن استخفاف او استنكار . . .

ونظر فى الساعة فوجدها الثامنة الا ربعا . . .

قال : أخشى ان أكون السبب فى تأخير عشائك . . .

قالت : ليكن ! . . .

قال : هل اخترت السلاح ؟!

قالت : أى سلاح ؟

قال سلاح الموت . . .

قالت : سأختار أسرعها وأحدها وأقساها . . .

قال : عندى امنيتك . كنت أعددتها لنفسى وحدى اذا كنت نجحت فى محاولاتك وسبقتنى الى هناك . . . اما الان فبالتصاريف القدر نستطيع أن نسافر معا !! !

ويخرج من جيبه « الحاجة » التى وجدت مدسوسة دسا بين البيجامة وفرشة الشعر ومشط الشعر ومصحف صغير فيه كلام الله . . .

وجحظت عينا الفتاة وتحفزت وتوثبت كالنمرة الثائرة وصاحت : شكرى ! ماهذا ؟ !!

قال بثبات وتؤدة : هذا « امحتركنين » . سيد السموم وسهم المنية وعزرائيل العقاقير . يتناوله الكفار أمثالنا والجاحدون

امثالنا والجبناء امثالنا واعداءالله امثالنا فيرتعشون ويتقلصون ثم يموتون ! ...

وتهجم الفتاة على الفتى وقد روعها الماء في العينين انوى من سابقه وانفذ . فيردها بذراعه الحديدية ثم يقذف بمنفاة الزجاجة ويدنيها من فمه قائلا :

— الرجال أولا ... سيدتي . وسأبقى لك نصيبك ، الى بكوب من الماء ...

واذ يدنى الزجاجة ذات المسحوق الى فمه تلطمه الفتاة لطمة جبارة تطير الزجاجة من يده فينتشر المسحوق الشرير على الارض . ثم تركع الفتاة وتبكي وتتوسل وتقبل قدميه مترنمة بأرق وأدوع وأرحم ماعرفه عالم الاصوات :

شكري ... شكري ... لاتموت ... بل تعيش !!!

. . . .

. . . .

اذكريني !

ابتسم « شكري » ابتسامة الظافر . وأخذ بيد الفتاة الى فراشها برفق وحنان ثم نظر الى ساعته وساوره القلق اذ أخذ من وقتها أكثر مما يأخذه الزائر العادي . كذلك خطر له أنه أحرج صديقه الدكتور أكثر مما يجب ، وخطر له أن هذه الزيارة الطويلة قد تثير لغطا في المستشفى وان كان على ثقة من أن صديقه قد دبر الامور كما يجب أن تدبر ...

قال : والآن ياصديقتي او ياشقيقتي . قررت «أن نعيش » أليس كذلك ؟! ...

: قالت نعم ، من الظلم ان تموت أنت ... وسأعيش لتعيش !

قال : حسنا .. أشكرك اذ انقذتني لوالدي وللمستقبل ولشبابي . ويا لك من طفلة ! بل يا لي من طفل أنا أيضا ؟ لايأس مع الحياة يامريم

ستعيشين وسيمحو المستقبل الزاهر ذكريات الماضي الاسود والحاضر المعتم . ستكونين نعم الزوجة ثم تصبحين أما .. وأولادك سوف يطردون بوجوههم البريئة . وضحكاتهم الموسيقية . والفاظهم الاخاذة . أشباح الحوادث . وسيشغلك الزمن والواجب عن كل شيء الا عن أمومتك ...

قالت : ليفعل القدر مايشاء • أنا بنت القدر !•••

قال : نحن جميعا أبناء القدر •••

قالت : بقى شىء ؟•••

قال : ماهو ؟••

قالت : مابينى وبينك •••

قال : كان مابينى وبينك طهرا وسيظل الى الخلود طهرا • كان مابينى وبينك أوفى وأقدس وأعف مابين فتاة وفتى • وسيبقى الى الابد محتفظا بقدسيته ، متحليا بكرامته ، حيا بذكرياته ، متمتعا بعذريته !•• هو الحب «البلاتونى» يامريم • حب الخيال والسماء والاحلام • حب الملائكة • حب النقاء والبقاء !••

« اتحذرين ماسوف يحدث ؟ يستحيل هذا الهوى العذرى صداقة بالزمن • صداقة حلوة خفاقة فأتنسم عن بعد أخبارك وتتنسمين عن بعد أخبارى • أدعو لك وتدعين لى بالسعادة كلما انبثق نور الفجر ، أو ودع قرص الشمس نهار الجلبة والضوضاء والكفاح ، أو أرخى الليل سدوله على مخلوقات الله الذين يلجئون الى مخادعهم ومخابئهم فى حراسة القضاء والقدر !•••

«ثم لابد أن نلتقى • وأفضل أن يكون اللقاء بعيدا • بعد اذ يخف وقع الصدمة ، وتبرد نار اللوعة ، وتخمد شعلة اللذعة . . . حينذاك — ولاأدرى متى وأين — نذكر معاهد الشباب ، وحلاوة الشباب ، وأحداث الشباب !••

نعم : نعيش يامريم ونعيش • والله كفيل بأن يشفيك ويشفينى من الفاجعة !!!

ويسكت « شكرى » منتظر الرد فيجده دموعا هادئة تتهادى على الوجنتين وتتلاحق بكبرياء وجلال •••

قالت : أدنت لحظة الوداع ؟!

قال : بل أوشكت أن تنتهى • • •

قالت : أعطنى قلما . . .

فيخرج من جيبه قلما « أمريكانيا » وتمد هى يدها الى الوسادة فتخرج من تحتها صورة لمريم الطالبة فى مدرسة الامريكان • ثم بيدها المرتعشة تخط على الصورة هذه الكلمات :

((الى خيالى النبيل •••))

((مريم))

ويأتي دوره في الاهداء فلا يجد شيئا . ثم فجأة يستلم بزجاجة « الاستركنين » الفارغة فيلتقطها من الارض ويقدمها لمريم قائلا :

— هذه هديتي أنا . احتفظي بها فقد كان سمها هو الترياق . وكان موتها هو الحياة ! ..

ويتناول الفتى يد الفتاة فيقبلها بخشوع وحرارة ، وتشترك دموعه المتساقطة في الوداع فتترك أثرا على الجلد الرقيق ...

ويأتي دور الفتاة فلا تملك الآن تضع قبلتها مكان قبلته على يدها . ولا تملك الا أن تمزج دموعها بدموعه على الجلد الرقيق

— الوداع يامريم ! ..

— الوداع ياشكري ...

. . . .

. . . .

وتتبع وقع أقدامه خطوة خطوة حتى اذا ما ابتلعه المستقبل المجهول دخلت الى الغرفة ممرضة تحمل ورقة صغيرة فيها كلمة . .

أما الورقة فمنه واليها . .

واما الكلمة فكانت :

((اذكريني ...))

استشفاء !

لا أدري تماما هل تتفق أمزجة المفجوعين في الحب . المقهورين في عالم العواطف . اليائسين من تحقق الامال الغرامية .. لا أدري هل تتفق أمزجتهم في اختيار الملجأ والمنفى والملاذ بعد النكبة أم لكل مزاج ، ولكل رأي ؟ ...

أنا من الناس الذين يغمرون أنفسهم غمرا في بحر الواجب والعمل عند الفشل في الحب . فاذا ماحل اخر الاسبوع واستقبلت يوم الراحة وانقطعت صلتي بالعمل والواجب تحركت في نفسي الذكريات ، واشتعلت في قلبي النار واستولى على الالم ...

ونقرأ في الروايات وفي الاخبار العالمية العاطفية أن كثيرات وكثيرين من فرائس القلوب الخفاقة يسافرون ويستسلمون للوحدة وللعزلة اذ يجدون في ذلك السلوان ...

ونقرأ أن كثيرات يلجأن للديرويتعلمن صانعين بالدنيا الخلابة وبالانوار وبمسارح اللهو والحبور

ونعرف أن كثيرين من هـذا الصنف المنكوب يجدون العلاج في الضجيج وفي العجيج وفي الجلبة والضوضاء وفي المجتمعات المنحشدة والسهرات التي لا يديرها العقل وانما يتولاها الهوس

الواقع أن الامزجة تختلف وان الاستعدادات تتباين ...

و«شكري» بعد عودته الثانية من «أسيوط» يفكر ويفكر واخيرا يقع اختياره بعد طول التفكير على «الريف» ...

❊ ❊ ❊

هذا «محمود» العربجي ينتظر سيده «شكري» على المحطة الريفية الصغيرة ذات الذكريات بالعربة القروية التي أنهكها الكر والفر وأضناها الذهاب والاياب في استقبال الزائرين وتوصيل المسافرين ... العربة التي ظلت زمنا طويلا رمز الكرم والجود ، والتي حملت فيما مضى زرافات ووحدانا من الادباء والكبراء والوزراء والحكام أيام كانت الدنيا دنيا الكرم والجود . والوفاء والصفاء . وحسن الحال وصفاء البال ...

ولمح «شكري» أن الخيل تتعثر وتتخبط من الهزال والضعف والجوع فقال : ما هذا يا اوسطى محمود ؟

جرت من العربجي المسكين دمعة وقال في صوت مخنوق : من عهد أن سكنتم مصر ياسيدي وكل شيء هنا جائع وعطشان ...

قال شكري : حتى الزرع يا محمود ؟ ...

قال : حتى الرجال والنساء والاطفال ...

وانحرفت العربة تحاول أن تتخطى المزلقان المرتفع عن السكة الزراعية فتعثرت الخيل وتخبطت وتقهقرت العربة تكاد تهوي براكبها في الترعة فضرب «شكري» كفا على كف قائلا : واحسرتاه ! ...

هذه طلائع الريف المهجور . الريف الذي كان زاهيا زاهرا موسرا مملوءا بالروح وبالحياة مفعما بالخيرات والبركات ؟ الريف مصدر المجد ومورد الرزق ومنبع النعيم المقيم ... ؟ الريف دعامة الثروة ومنبت المجد العتيق ، والصديق الوفي والرفيق الذي لا يغدر ولا يخون ؟ الريف الفاضل عدو الرذيلة وكفيل الجمال والكمال ؟ هذا هو الريف قد خيم عليه الغيم المعتم وانتشرت فوق أرجائه الكآبة التي تسحق القلوب ! ...

ووصلت العربة الى القرية ، وواحسرتاه مرة اخرى ! هذه هى التلال قد زادت تلالا . وهذه هى البرك تضاعفت بركا ، وهؤلاء هم الاطفال العراة كما نزلوا من بطون أمهاتهم لا يرتدون شيئا لان « هدمتهم » الوحيدة ... الوحيدة صيفا وشتاء فى « المغسيل !! ... »

ويظل الطفل بجسمه العارى العليل طول النهار حتى تغسل « الهدمة » وتنشف فيرتديها على اللحم ! ... يرتديها على اللحم بعد ان تكون قد فعلت الاهوية والرياح والصفار والميكروبات فعلها فى صدره وبطنه وسيقانه ؟ !

ويصل « شكرى » الى بيت الاسرة الحافل بالذكريات فتفد اليه وفود الرجال والنساء من القرية . اما الرجال فلينتظروا قليلا فى « السلاملك » وليشربوا القهوة حتى ينتهى من استقبال الزائرات ...

المتطوعون ؟ !

هذه « أم رجب » التى عرفها ضحوكا ثرثارة حاضرة البديهة سريعة النكتة زاخرة بالامثال ما بالها قد تغيرت وهرمت وتجللت بالسواد ؟ ! لك العزاء يا مسكينة ... ابنها الوحيد قد غيبته صحارى فلسطين فكان ضحية من ضحايا السلطة !!!

وهذه « أم الخير » مثلها وانما فقدت اثنين ؟ !

وهذه « أم نعمة » مثلها وانما فقدت ثلاثة ؟ !

حسبنا ، حسبنا : يا ولايا يا ثكالى لا تبتئسن ولا تحزن ففى سبيل الوطن ذهبت فلذات الاكباد ؟!!. فى سبيل الوطن ؟! ...

نعم ! ولم لا ؟! هكذا قال أقطابنا وزعماؤنا وساستنا والا فكيف رضيت ضمائرهم المصرية . وكيف قبلت قلوبهم الوطنية . وكيف سمحت عقولهم الشرقية ان تسوق ذلك الجيش العرمرم من العراة الحفاة كقطيع الغنم ضد الاتراك ومع الانكليز الى الحدود والى ما بعد الحدود حيث ضحوا المهج فى وهج الشمس وظلام الليل وفى الاغوار والانجاد والهضاب والجبال ؟ !

فى سبيل الوطن لا شك ! ؟ فلما نال الوطن النصر وتقهقر العدو وفرضت الشروط على من خسر الحرب قاسية حامية قاصمة قاضية : قبض الوطن الثمن ونال الجزاء ؟ !!

قبض الثمن ذلا على ذل ، وعارا على عار ، واستعبادا على استعباد ، وفقرا على فقر ! . .

وبقى فى البلد الاحتلال ، رمزا خالدا للاستغلال ! . . .

الفلاح !

— وانت يا « سليمة » كيف حال ابنك « طلب » ؟ اليوم يوم الاربعاء ، هل احضرت له شيئا من السوق ؟

قالت « سليمة » وقد سرتها هذه المداعبة انها احضرت له حلاوة حمصية و« حتتين قته »

قال : « ألم تحضرى له لحمة ؟ »

قالت : « لحمة لا ، نجيبها سوق وسوق لا !. . »

وامن الفلاحات الزائرات على كلامها . يأكل الفلاحون اللحم فى الشهر مرتين . واللحم فى عرفهم شىء من العظام و « الشغت » . يشترونه بارخص الاثمان من لحم الجاموس او البقر او الماعز الذى تدركه وتنقذه السكين من الام الاحتضار . . . وقد يخدعهم الجزارون الغلاظ القلوب والاكباد فيبيعونهم اللحم من « الفطيس » اللحم الفاسد الذى يحمل الى جوفهم الامراض والاوبئة . . . اما طعامهم بقية ايام الشهر فالعيش الذرة الحاف مع قليل من الملح ، وقليل من البصل ، وقليل من الفجل والجرجير والمش ، وقليل من الخضار المطبوخ لا بالسمن ولا بالزبد ولا بالزيت وانما بالماء ! ! !

وثروة الفلاح فى الريف اولاد وماشية ، اما الاولاد فسائل « الشمس » : هل استطاعت يوما ان تنفذ باشعتها الى داخل الدور المبنية من الطين والطوب « النىء » والتى ابى فن مهندسيها ومقاوليها ان يجعل فى جدرانها منافذ لدخول الشعاع الربانى المطهر ؟ وسائل « الهواء » : هل كان اوسع من الشمس حيلة فاستطاع ان يتسلل واو كاللص الى هذه القلاع الحقيرة المحصنة ؟

ثم سل سكان هذه الدور : هل يفصل بينهم وبين البهائم وروث البهائم فاصل ؟

هل تمتاز الزريبة عن الحضير والمصطبة والقاعة والدهليز ام الكل سواء فى الاثاث وفى الرياش ؟!

ثم سائل الانكلستوما والبلهارسيا وغيرهما وغيرهما : ماذا فعلت فى الفلاح وبنى الفلاح ؟

سل العزب والكفور : اين ذهب الرجال والفتيان وما الذي حصدهم حصدا حتى اقفرت الدور الا من الارامل والثكالى ؟!

اما « الماشية » فحدثيني يا ام نعمة : اين ذهب جمل عم « حسن ابو متولى » وطوره وبقره وجاموسه وحماره الحصاوى وماعزه وخرافه ... واين ذهب جمل عم « سليمان القطاوى » وطوره وبقره وجاموسه وحماره الحصاوى وماعزه وخرافه ... واين ذهبت ماشية عم « ابراهيم ابو رمضان » وعم « حسين زقندح » وغيرهم وغيرهم من اعيان المزارعين خبراء الغيط واقطاب الزراع فى القرية ؟!..

— راح الخير ياسيدى ..

ذهب الخير وولى ، واقفرت مخازن الذرة والقمح فى بيوت الفلاحين البسطاء . فاذا مابحثت عن السبب وجدته هو السبب دائما . هاجر الاسياد الى المواصم واجروا الضياع لفلاحيهم . وهؤلاء فقراء لايملكون ثمن السماد وثمن التقاوى واجرة الرى وغيرها وغيرها من النفقات والتكاليف . وتأخروا بسبب العجز المالى عن السداد فتراكم الدين للسيد على المسود . والسيد فى القاهرة او فى البندر يريد نقودا تسد نفقات تفرنجه وتمصره ورفاهية المدنية . فهو لايرحم لانه هو ايضا محتاج . والغيط المسكين يتحمل فى هذه الحالة اهمال الفلاح وجشع المالك . والفلاح تحت ضغط السداد يبيع مايملك من ماشية . فاذا ماتجرد عنها تجرد عن سلاحه ففشل كرجل خبير فى الزراعة فنان ...

هذه هى الناحية المادية التى كانت نتيجة حتمية من نتائج التطور الريفى : ان ينقلب الزارع بيده من عامل الى مستأجر

أما الناحية المادية فأدهى وأمر وانكى . شعر الفلاح بنوع من الكبرياء والغرور اذ اصبح جديرا بالتعاقد مع سيده بعد أن كان رجلا من رجاله يأتمر بأمره وينتهى بنهيه . وهذا النوع من التحرر والرقى رفع نوعا مستوى معيشته فلم يدم الارتفاع طويلا . فهوى !

هوى الاعيان وهوى الفلاحون ونضب معين الخير وضاقت الارزاق وجاءت الحركة السياسية فكان لها ضلع من سنة ١٩١٩ حتى كتابة هذه السطور ...

شغلت السياسة ولاة الامور بالتتابع من ذلك التاريخ حتى

هذا التاريخ . فخدم ولاة الامور « الحزبية » اكثر مما خدموا الامة من الناحية الزراعية والاقتصادية فاختل التوازن بين الايراد والمنصرف . واصبحت دعوى ان « مصر غنية » اكذوبة من الاكاذيب الفاضحة ومغالطة من المغالطات الدائمة !

اذن صدقت « أم نعمة » اذ قالت :

« راح الخير يا سيدى ... »

وارتفع القطن فى سنة ١٩١٩ فوصل سعر القنطار الى اربعين جنيها واكثر من اربعين ...

ثم جاءت سنة ٩٢٠ و ٩٢١ و ٩٢٢ وما بعدها وبدأ سعر القطن يهبط ويهبط . ثم يهبط ويهبط الى مستوى الفقر المدقع المتجسم فى الاشباح التى امامه : وجوه صفر عليلة ، خلق بالية ، عظام تكاد تكسو اللحم ولا يكسوها اللحم ... اذن ماذا استفاد الفلاحون البائسون من ارتفاع الاسعار ذلك الارتفاع الجنونى الخيالى الغريب ؟ !

لا شيء ...

الفلاح الصغير دائما هو الفلاح الصغير . سنة اليسر وسنة العسر عنده سيان . وغريبة هذه المشاهدة فى بلادنا المسكينة . والفلاح المصرى هو فلاح العالم الوحيد الذى لا يتأثر بالازمة ولا يتأثر بالنعمة . وعندما اقول الفلاح ارجو ان يفهم قرائى اننى اقصد تلك الطبقة الحافية العارية المريضة التى حافظت فى ماضيها وحاضرها على تقاليدنا القديمة وهى الجلد والصبر والعمل فكانت دائما مصدر الرزق ولكن بلا مقابل ! ...

* * *

وخرج « شكرى » الى السلاملك تقابل الرجال . واخذ يستمع الى شكاواهم المرة ونكباتهم الاليمة التى مرت بهم فى عهد شراء الجمال والحمير والبغال والذرة والشعير وفى عهد سوق الاولاد للعمل فى فلسطين ...

ثم اخذ يستمع الى شكاواهم المرة ونكباتهم الاليمة بعد « الثورة » فى عهد التحقيقات والاحكام وعهد التشفى والانتقام ! ...

ثم اخذ يستمع الى شكاواهم المرة ونكباتهم الاليمة الخاصة بالاوزان والاخوان

ثم أخذ يستمع الى ذكريات عهد البر والوفاء بين السادة وبين المسودين ...

ثم خلص الى نتيجة اشتراكية بحتة ، وهي ان هذا الصنف من الآدميين صنف مجحود يقاسي شر انواع نكران الجميل ! ...

* * *

وأخذ يستشفي فتانا في الريف فلم يطق البقاء طويلا وانما أخذ يعالج جروح قلبه بالحياة الهادئة وبالوسط الجاهل الساذج • وبالخضرة المنبسطة، وبالنوم المبكر وبحياة الخمول والذكريات ...

ثم عاد الى القاهرة ليحيا حياة جديدة : حياة المحاماة من جديد وحياة السياسة • وليته لم يحيها

وبجانب هاتين الحياتين انتحر — أو قل صمم على الانتحار — في حياة الحب والغرام ... • • • • • • •

اضحك يضحك لك العالم ! ...

فعل الريف فعله في نفس «شكري» وفي نفسيته ...

وفعلت المأساة الاولى والثانية فعل الريف ...

وخلع المحامي الناشىء المنظار الاسود عن عينيه • وصمم أن يعيش فيلسوفا وفيلسوفا مرحا طروبا مستهترا بالحياة مطبقا المثل العالمي المشهور :

« اضحك يضحك لك العالم ! »

وها هو ذا قد عاد الى القاهرة وبرز في نواديها وأحزابها وقهواتها وسهراتها ومجتمعاتها، فكان واسطة العقد • و«سنترال» الحظ والانس والمجون الطيب البريء ...

ولكنه في مجونه ومباذله ومقره وهذيانه كان يبدو كالمجنون المكافح المتطبع • كان يكافح في داخليه نفسه آلامه ، ويسارع ذكرياته الحزينة ويناضل لطماته السابقة • ويحاول أن يشفي جروحه الدامية ...

وظهر على جمهور القراء المصريين بمقال تحت هذا العنوان : « اضحك يضحك لك العالم » • فنوصى اهله واصدقاءه بانه اذا مات فعليهم أن يجللوا نعشه بالزهور البيضاء والحمراء — وأن يلبسوا الملابس الزاهية الالوان، وأن يرقصوا ويمرحوا ويطربوا ويشربوا على صحته في ليلة المأتم الاولى ! ...

بسابق الشباب وصدقت نظرته الى الحياة ، انى اذ أدون وقائع حياته الآن — أي في سنة ١٩٣٢ أستعرض في ذاكرتي عزيزاتي وأعزائي الذين ذهبوا ... وأفذاذ العالم الذين هووا الى الحضيض في أوج عزتهم وسؤددهم ومجدهم ... وكيف خلق القدر خاملين فجعل منهم نابهين وكيف غدر بالنابهين فجعلهم خاملين ... انى اذ أذكر ذلك واستعرضه اجد ان لا قاعدة في هذه الدنيا ، وان من واجب المفكر الرزين ان يكون « قدريا » على طول الخط ، عدوا للمطامع والامال ، يكافح ولكن بلا شجن ولا ألم ، ويسعى ولكن بلا عذاب : يكد ويقدح زناد الفكر ولا يكل ولا يمل ولكن تحت شرط : ان ينام في الليل ملء جفونه وان لا يقول : آه ...

تلك الفتاة التي كانت تتربع على عروش جميع القلوب ، وكانت حديث الشبان في السهرات ، وكانت مطمح عشرات من الخطاب ، فجأة تسعل سعالا خفيفا ، ثم تشحب ، ثم تذوب ، ثم تنتهي ، ماتت بالصدر وبالعلة الخبيثة ، لم اختطفها القدر ولم يرحم شبابها وجمالها وكمالها ؟ ولم يرحم عواطف الذين اشتروا مناهم من الدنيا بها ، ولم يرحم اجماع الناس على حبها ؟ لم تموت » ! لا أدرى ... وانما شاء القدر ، فابكوا وأذرفوا الدمع السخين يا سخفاء ! ..

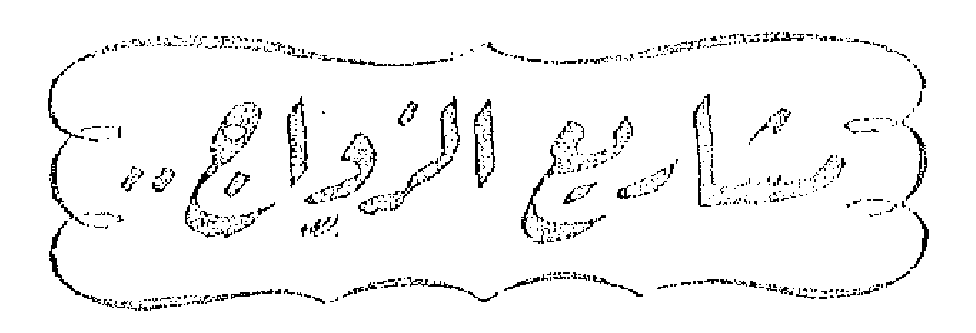
وذلك الشاب المتألق في نوادي القاهرة الصاعد بسرعة البرق الى العلاء ، المحمود الخصال والخلال ، المدير لادارة حكومية كانت مثالا في الدقة والاحكام والنظام يفكر في الزواج ويختار خطيبته من أكرم البيوت واجمل الفتيات ، ويمرح بها وبسيارته في المساء الجميل يتبادلان أرق العواطف ويديران حديقة المستقبل الغناء ، هذا الشاب يمتلىء بيته المعد « للدخلة » بعد ثلاثة أيام باثاث العروس الفاخر وقد ازدحم باخوانه واقاربه يتفرجون ويهنئون حتى اذا انصرفوا ذهب الى القهوة وطلب فنجانا ، ثم ارتفق بذراعه ووضع أنامله على جبهته يفكر في تنميق غرفة الاستقبال واعداد الحمام وتهيئة غرفة الطعام ثم يسرح في خيال الاحلام ، ويأتي « الجرسون » بفنجان القهوة ويداعبه فلا يرد ... ويحركه فلا يتحرك ... ويضع يده على قلبه فيجده قد مات !

وهذا الشاب الذي نشأ في وسط تجاري ، فلما هيأت له كفاءته أن يتولى المنصب الذي يساير نبوغه ويتمشى وجدارته ،

نشر نشاطه الحكيم المتشد ذات اليمين وذات الشمال فأثمر وانتج واكتسح وأباد وزحف الى المشروعات الوطنية الاقتصادية زحف الجيش الجرار الكامل العدة القوى السلاح . حتى اذا دوى اسمه دويه ، وطار فى الوطن كل مطار . انهب فجأة رأسه برصاص المسدس فسقط جثة هامدة بين ذراعى زوجته وعلى مرأى من طفليه بغير سبب معقول ؟ !

وهذا .. وهذا .. وذاك ... والصرعى فى الطريق . وفى القطار . وعلى مكاتب الدواوين . وفى القهوات والنوادى من هؤلاء ؟

هؤلاء هم ضحايا القدر بغير سابق انذار . اذن لا تساوى الدنيا شيئا . فعلام الهم والغم والحزن والشجن وعلام الآهات والانات والحسرات . وعلام الارق فى الليل والكدر فى النهار ؟ . اذن الى الوراء يا مشاغل الدنيا والى الوراء يا مطامع ويا مظاهر . ويا امال ويا امنيات . واهلا بك يا قدر . ان « شكرى » يستقبلك مستسلما ويؤسس فلسفته الجديدة على قاعدة : « اضحك يضحك لك العالم ! »



يلاحظ الابوان الكريمان على ولدهما الثالث انه يتخبط . فمن حزن قاتل . الى داء عضال . الى ضحكات جنونية . الى مسرح مفاجىء . الى اندمار في السياسة على غير هدى وعلى غير اساس . .

ثم هاهو ذا يندفع في تيار التحرير السياسي المتطرف الملتهب المشتعل نارا . . وهاهي ذي رسالاته تظهر في اكبر الجرائد اليومية الصباحية باسلوب فاز بحسن الحظ وبالحظوة ووقع من النفوس موقع الهوى والسلوى . وامتزجت فيه الفكاهة بالجد . والسكر بالحنظل . ويظهر ان سر نجاح ذلك النوع من الاساليب الكتابية يرجع الى ان النفوس كانت ولاتزال مفعمة بالام الحياة وباكدارها ورزاياها فهي جد تواقة الى القراءة المرفهة المعزية المواسية ؛ المرسلة ارسالا لاتفنن فيه ولا صنعة مادامت تخضع لوحي الطبيعة والسليقة لا وحي التكلف والتعمل . وداعب الكاتب فيمن داعب جنس النساء والفتيات !

ولاحظت «الام» اليقظة ان فتاها يفتح على شبابه فتحا جديدا وانه اوشك ان يندفع في تيار الاغراء فصاحت : الزواج ! الزواج !

* * *

وقعت الصيحة من نفسه موقعا حسنا فصاح هو ايضا : الزواج الزواج ! . . .

واشتغل قلم المباحث والتحريات وكانت للام اقتراحات . وللعمات اقتراحات . وللخالة اقتراحات . وللاخت اقتراحات . وكم كانت الاذواق متنافرة . والاراء متباينة حتى سئم الخلاف فقال لهن : أسترحن واتركنني اختار . . .

الخطيبة نمرة «١»

تلميذة على وشك التخرج لاتزيد سنها على ستة عشر عاما عرفها في ليلة ساهرة بمنزل اسرتها . وكانت سهرة مختلطة اجتمع فيها رجال ونساء

ولفت نظره انها كانت لاتلتفت الا اليه . ولا تعنى الا به . ولعله كان اصغر الموجودين وكانت هى اصغر الموجودات . والسن تجذب اليها السن ولو مع التفاوت فيها

ولاحظ بعض المدعوين انه واياها يختلسان النظرات فسلط دعاباته عليهما . وكانت الفتاة تنتشى بالدعابة . وتلذ بهذه الملاحظة . فتشجع !

وكانت فتاة جمالها كله ينحصر فى تعبير واحد : رقيقة !

كانت نحيلة ، دقيقة ، سمراء ، ذات فم انيق واسنان صغيرة فتانة . . . ذات عينين لاتستطيع ان تحدق فيهما طويلا . ولكن ماقلنا ولكن هذا الوصف وهو لم يستهو منها جمال اللون ، ولا جمال القد ولا جمال الفم والعينين ، وانما لعب بلبه انها كانت لا تنطق حرف « الراء » كما ينطق الناس حرف « الراء » ! !

« راء » شاذة لاهى بالراء الواضحة ولا هى « بالغين » المدغومة . وانما نصفها من هنا ونصفها من هناك ! !

لأظن مصدرها لثة الاسنان الخلفية وانما يغلب انها تصدر بعد طى طرف اللسان من الحلق .

ولمحت الفتاة الصغيرة انها لمست بانا ملها قلبه ، فزادته عناية ورعاية واخذت ـ كربة منزل صغيرة ـ تعنى بطلباته اثناء السهرة . .

وفى غفلة بريئة من المدعوين اختلى بها بجوار « البيانو » فاخذت تحادثه بحديث فيه الساذج ، والماكر ، ولكنه كله خلاب . .

وتوسل اليها ان تضرب على البيانو وان تسمعه شيئا فتمنعت تمنع الاطفال . ثم رضخت رضوخ الاطفال ثم لعبت لعب الاطفال . .

***

تكررت الزيارات وزالت الكلفة وعرف سكان المنزل ، وأصدقاء المنزل ، أن علاقة « الحب » نمت بين الاثنين . وأنها تتجه بسرعة نحو الخطبة . ونحو الزواج . .

وبدأ يدرس الفتاة دراسة الزوجة لادراسة العاطفة فوجد ان الفارق كبير بين أسرته وتقاليده القديمة الرجعية . وبين أسرتها المتحررة العصرية . والفتاة كانت صغيرة فى السن وكان النزق

والطيش الصبياني مستفتين لاصقتين باحوالها وتصرفاتهما .
كانت فى « السينما » منلاحنة الملاحظات على الشبان وملابسهم
واحوالهم . فهذا فى نظرها جميل ... وهذا رشيق ...
وذاك ثقيل الدم . . . وذلك وجيه !

وكانت مشغوفة بالرقص يكاد يبكيها وينغص عيشها ان
«شكرى» لايرقص . وكم توسلت اليه والحت عليه أن يتعلم ليكون
شابا من آخر طراز ...

وكانت من غواة قيادة السيارات وكم وبخته توبيخا ممزوجا بالالم
وبالكدر لانه متاخر : فهو لايضرب على البيانو ولا يرقص ، ولايقود
السيارات . وانها تود ان تخلق منه فى أقرب فرصة شابا من
النوع المعروف : « سبورت » !.

وجد « شكرى » ان الفرق عظيم بين عقليته وعقلية خطيبته ،
وان الدراسة التى تتجه يوميا نحو « الاعماق » تكشف عن
خيبة الامل رويدا !! ولاحظ فى احدى السهرات ان زائرا جديدا
قد طرأ على الوسط : شاب أنيق من سن الفتاة . وممن يرتدون
« الجاكته الكتفية » ذات الازرار الذهبية . والبنطلون الواسع
باسفل الكعب . وممن حملة « الكرافتات » ذات اللون «القوس
قزحى» . ومن ذوى الشعر المكوى . وباختصار ممن يصح
ان نطلق عليهم لقب « الجنس نصف — اللطيف » ...

ورقص هذا الشاب معها فى احدى الليالى الساهرة فنظر
اليهما وعيناه تقدحان بالشرر . ولكنهما والحق يقال كانا منسجمين
متكافئين فى الرشاقة والاناقة والسن والعقلية والمؤهلات !! ..

بدأ نجمه يأفل ونجم هذا يرتفع . وفى ليلة من الليالى
انعطف «شكرى» فى شارع الاسرة فى زيارة من زياراته . فلمح سيارة
« سبورت » من ذات المقعدين تقف بكياسة ولباقة على الباب
ثم لمح الفتاة والفتى قد نزلا منها بكياسة ولباقة وقد تأبط ذراعها
وتأبطت ذراعه بشغف وحنان وعاطفة . فقال فى نفسه : وداعا ،
والى الوراء !!!

ودق جرس التليفون فى اليوم التالى فى الميعاد فأخذ السماعة
ودارت المحادثة الاتية :

هو : آلو . مين ؟
هى : أنا ...

هو : كيف حالك ؟ ..

هى : عال ...

هو : اهنئك ...

هى : بماذا ؟

هو : به ...

هى : من ؟

هو : الرشيق أل «سبورت» .

القت السماعة بغضب . وفى الليل ذهب « شكرى » الى احد تياترات ليتناسى همه ، فوجد الاسرة فى احد البناوير . ولمح الفتاة «السبورت» والفتى «السبورت» متلاصقين فاقتحم الباب وسلم بأدب وابتسام . ثم همس فى أذنها قائلا : «أهنئك» ...

فاطرقت وقد كسا وجهها احمرار . ولم تمض شهور حتى تزوج الفتى من الفتاة ......

فتنهد قائلا : بالرفاء والبنين !.

الخطيبة نمرة «٢»

نحن الان فى سنة ١٩٢٣ وقد استقل « الاستاذ شكرى » بمكتب فى مدينة من عواصم الاقاليم . وقد اشتغل محاميا موفقا من البارزين الذين يحق لهم الجلوس مع سعادة المدير ، وسعادة الوكيل . وسعادة الحكمدار . وبزغ نجمه فى سماء الكتابة فتلهف القراء بحق أو بغير حق على رسائله فى الجرائد وبالرغم من اقامته بالمدينة التى اتخذها موطنا لحرفته فانه كان وثيق الاتصال أسبوعيا بالقاهرة

وقرأ فى هذه الاثناء رسالة اجتماعية دقيقة البحث عن الزواج فى مجلة اسبوعية افرنجية . ذهب فيها الكاتب الذائع الصيت الى ان الزواج المؤسس على « الحب » زواج « الفشل » فيه غالب . وان الزوجية المبنية على تقدير الجديات أجدى على الزوجين وابقى من المبنية على العواطف والخيال . وهو فوق ذلك قد جرب الحب العفيف فى مأساته الثانية والحب الذى يظنه الناس غير عفيف فى مأساته الاولى . ثم اتعظ من فشل خطبته الاولى فصمم على ان يتزوج كما يتزوج آباؤه واجداده من قبل .

وبعث يخاطبنه « أم هناوه » كالكشافة فى ميادين القتال ..



وفى ليلة من الليالى انعطف شكرى فى شارع الاسرة فى زيارة من زياراته فلمح سيارة من ذات المقعدين تقف بكياسة على الباب ولمح الفتى والفتاة قد نزلا منها وقد تأبط ذراعها

وياليها من سخافة ! لقد جاءته باخبار وأوصاف وتفاصيل وأرقام الله وحده أعلم بصحتها ودقتها . ثم فهم ضمنا من كلامها انها انبأتهم باخبار وأوصاف وتفاصيل وأرقام الله ، وسر ، العالمان بصحتها ودقتها . واعجب ما في الموضوع انها طلبت « صورته الفوتوغرافية » ! فحمد الله ولجأ الى صديقه « هنزلمان » فخلق منه ـ فوتوغرافيا ـ خلقة وسيمة خلابة فتانة وبارك الله في فعل « الرتوش » ومهارة الفنان .. وكان لابد للاستاذ المثقف المتهكم على كل شيء من أن ان يخضع خضوع المستسلمين لهذه الاجراءات وهذه التقاليد . وقيل أن سفيرة او سفيرتين من اهله المقربين يجب ان تذهبا لزيارة أهل الفتاة ، ولمعاينة الفتاة .. وعجب ـ في نظره ـ أن يستلزم الامر هذا ومستخدمو « سيمنز » و « شيكوريل » يماينون بدون سفيرة او سفيرتين ويشاهدون وليس عندهم الا نية البيع والشراء والمساومة والفصال »

...

وسأل الاستاذ : يا للخجل !؟ وكيف تتم هذه المعاينة ؟
قالت خالته الفصيحة : نخطر أهل العروس بالزيارة ..
قال : ثم ماذا ؟

قالت : نحدد الميعاد فتستعد العروس وتنظم نفسها وجمالها وقوامها وترتدى أبدع ثيابها وتعطر جسمها وشعرها بالروائح . حتى اذا وصلنا وشربنا القهوة أو الشربات استدعيت العروس فأقبلت تتهادى خجولا وجلست بأدب واحتشام ثم يأتى دور البحث والفحص ...
قال : وكيف ؟ !

قالت : هنا اللباقة والمهارة ، فالواحدة المجربة تشرع في الحديث معها ...

وتحدق أثناء الحديث في « أسنانها » لنرى ان كانت فيها عيوب أو كسور من ناحية التناسق واللون . ومن الحديث نستنتج « خفة الروح » أو « ثقل الدم » ونعرف نوع « الصوت » ان كان ناعما أو خشنا أو غليظا ..
قال : ثم ماذا ؟

قالت : ... وقد تخرج الواحدة منا « سيكارتها » وتطلب الى العروس برفق أن تشعل عود الكبريت فتتقدم لتامح قوامها

وقسدها وتقترب • فتنشاغل لتشمل عودا آخر ولتتسع لها الفرصة لتحدق فى عينيها عن قرب ، ثم تنتهز السفيرة الاخرى هذا الوضع « فتطبطب » على صدرها لتلمس « ثدييها » ببراعة واحكام • • •

قال : كفى !

قالت : ماذا ؟ • • •

قال : يا للخجل ! وأى فرق بينكن وبين « سماسرة » الخيول • وغواة الخيول ؟ أنتن بهذا الشكل لا تخطبن فتاة وانما تشترين حصانا ! • • •

وكان لا بد من هذه السفارة فتوسل الاستاذ الى سفيراته ان يترفقن بالفتاة المسكينة فوعدنه خيرا • • •

ولا يعرف الاستاذ ماذا تم فى هذه المعاينة وانما تقدمت اليه تقارير متناقضة • فالسفيرة « نمرة ١ » ترى انها « بضلة » والسفيرة « نمرة ٢ » ترى انها « كاملة » • والسفيرة « نمرة ٣ » ترى انها لا بأس بها • • •

وجاء دور « التحريات » عن الاستاذ وعن ماليته ، وعن سيره وسلوكه ، وعن عدد اخوته • وعن • • • وعن • • • وأفكه ما فى الموضوع انهم سألوا عنه « مأمور قسم شبرا » ولعلهم استعانوا بالبوليس السرى عن أحواله وأسراره • • • واستغرقت هذه التحريات أشهرا ثلاثة • ثم صدر القرار أخيرا بالقبول مبدئيا وجاء دور الكلام عن « المهر » و « الشبكة » وليس المجال مجال التفصيل فسخافاته ومهازله معروفة • وفرضت أسرة العروس رقما عاليا دفعه الاستاذ راضخا • ولم يكن فى حياته الحاضرة ولا المقبلة من الماديين • وكانت اتعاب القضايا فى سنتى (٢١ و ٢٢) تتدفق على جيبه فلم يكن رقم « المهر » أو « الشبكة » من العقبات ! • • •

وسمح للخطيب ان يتردد على منزل الاسرة الضخم فى القاهرة وان يقابل رب الاسرة العظيم وزوجته العظيمة • وكانت زوجته عظيمة حقا ! بل متألهة ! • • •

وأوعزوا اليه أن يقدم « الدبلة » فقدمها باجراءات ومراسيم ورسميات • وحين جاء دور العمل الحاسم وقد استعد له

وتم الاتفاق على كل التفاصيل من «كتب كتاب» و«ليلة دخلة» و(فرح) استدعته الزوجة العظيمة أو الام العظيمة لمقابلة خاصة فاسرع اليها فهمست فى أذنه سائلة : أين تكون الدخلة ؟

قال : كما تأمرين ...

قالت : اعنى اين تكون الاقامة ؟

قال : فى بلدى التى أشتغل فيها ، حيث حرفتى وعملائى ورزقى !

قالت : لا . لا . بنتى لاتعيش الا فى مصر !

قال : عفوك ياسيدتى . أتعيش وحدها واعيش وحدى ؟ !

قالت : لا . ولكن تنتقل الى مصر !

قال : سيدتى . ان هذا مستحيل !

قالت : ونحن ايضا مستحيل ...

ودخل رب الاسرة الفخم فى هذه اللحظة . فتضرع اليه الاستاذ متوسلا و « استأنف » امام عظمته « قرار » الزوجة العظيمة فصدر نطقه الكريم « بالتأييد » !!!

وانسدل الستار على الخطبة الثانية ...

الخطيبة نمرة « ٣ »

فى يوم من الايام تلقى الاستاذ « شكرى » خطابا باللغة الفرنسية من فتاة لاتتجاوز الثامنة عشرة مثقفة متعلمه كما يبدو من روح تحريرها وكما تذكر فى خطابها ، والخطاب يتضمن شكوى مرة من معيشتها فى منزل الاسرة . ومما تلقاه من الالم النفسانى بسبب اصطدام التربية العصرية بالتقاليد القديمة ، ووقعت الفتاة بتوقيع مستعار ، غير أنها ذكرت العنوان ، ومن الصدف العجيبة انه عرف العنوان وعرف المنزل لاول وهلة وعرف الفتاة . ولكنه لم يشأ ان يتعدى حده ، فرد ردا موجزا يتفق وتربيته ومكانة الفتاة وأسرتها . واعدها بكتابة بحث طويل فى مجلة معروفة لتستفيد الفتاة من رده الذى سوف ينشر فى المجلة الشهرية . وكان الخطاب والرد ـ على هذا الشكل ـ عبارة عن مراسلة أدبية اجتماعية لاتدل على شىء ولا تنبىء عن شىء ...

وظهر البحث الطويل فى المجلة وقرأته الفتاة الراقية . فرأت من واجبها ان تشكره على نصائحه وارشاداته واتصلت به تليفونيا

وبالرغم من عصريتها وثقافتهـا وتمدينها كلمته بصوت مضطرب ولكنها فهمت من حديثه انه عرفها وانه يعرف أسرتها وانه يحمـل لها كل احترام واجلال وانتهت المخابرة التليفونية !

وعن للفتاة فى ظرف آخر ان تكلفه ببحث آخر فكلمته بالتليفون مرة أخرى وأجابها الى رغبتهـا ونشر البحث الاخر ؛ فرأت ان تشكره فكلمته مرة ثالثة ورابعة وخامسة ...

كانت الفتاة كما ترى مثقفـة تثقيفا عاليا . ثم هى فوق ذلك كانت موسرة ومن بيت كبير . وقد تحرى الاستاذ — من باب الفضول — فعلم انها جميـلة . ومن محادثاته معها تحقق لديه انها ثابتة فى خلقها . فلم يبـدر منها لفظ ، ولم تخرج كلمة ، ولم تفلت جملة ، يمكن ان يستنتج منها انها مـن ذوات النزق او الطيش او التسامح فى القواعـد الاخلاقية التى تزين الفتاة ...

احب فيها هذا التحفظ وهذا الاتزان على صغر السن وصـغر التجربة . واغراه انها تعـرفت اليه مـن طـريق الادب البرىء والبحث البرىء . ثم راى فى شكاواها المنزليـة مايستحق العطف ويستحق التقدير ففكر فى أن يتشجع ، ومر على ذهنه خاطر الزواج ...

وشاءت الظروف الطيبة ان تنتقـل الفتـاة وأسرتهـا الى الاسكندرية فى الصـيف . وان تقطن بجوار منزل مـن منـازل افراد اسرته المقربين اليـه . واختلطت الاسرتان وامتزجتـا ، وجاء ذكر الاسـتاذ على لسـان الفتـاة ...

ثم تقدم الحديث وتوغل فجرى البحث من ناحيتها عن اخلاقه . وعوائده وروحه . واسـتعداده للزواج . ففهمت القريبة ماشاء لها ذكاؤها وقرظت قريبها أحسن التقريظ ...

وكانت المباحث وفق مرامهـا فطربت ولم تستطـع أن تخفى سرورها وانكشف الموقع فانتقلت المتحادثتان مباشرة الى « مشروع الزواج » ...

***

وبلغت التفاصيل الى الاستاذ فأبرق بالموافقة من غـير تحفظ ومن غير قيود . واسـتمر تزاور الاسرتين والموضوع هو حـديث الايام والليـالى عـلى أن تتـم الاجراءات فى القاهرة ! ...

***

وكنا قد وصلنا الى اواخر سنة ١٩٢٢ وقد خلق الانكليز للبلد « برلمانا » و «انتخابات» وشرع الاستاذ يعد نفسه لخوض غمارها . فاظهرت الفتاة من المشاعر ما رسخ فى ذهنه انها سوف تكون حقا الزوجة المسعدة والشريكة التى يضمن بمعاونتها صفاء الحياة . . .

ولامر ما انقطعت المخابرات التليفونية وانقطع الاتصال فظن انها لابد وان تكون بارحت القاهرة الى مزارع الاسرة فى اقليم ناء بعيد . . .

***

وكان قد نصح لها ان لاتكاتبه وذلك كان مبدؤه الذى اذاعه . فان امقت ماكان يمقت أن تسرف الفتاة فى الخطابات التى قد تكون يوما ما سببا فى اشكالات واحزان

ولكن الزمن طال واصبح من غير الطبيعى أن يكون الانقطاع . طبيعيا . . .

ومن السهولة ان يتحرى عما اذا كانت بالقاهرة اولا . . .

وقد تحرى فعلم انها لم تغادر القاهرة !

ماذا ؟!

لابد من ان ينكشف السر !

***

وجاءته بوستة الصباح بعد اسبوع فميز من بين الخطابات خطابا فخما مزخرفا تبدو عليه الوجاهة ففضه بشغف على اعتقاد انه منها . . .

كان منها حقيقة ولم يكن منها . كان من ناحيتها ، كان من حولها ، لانه كان عنها وعن مصيرها . . .

كان بطاقة دعوة لحضور حفلة زفافها من فلان ابن فلان ! ! !

وسقطت دمعة هى دمعة « الكبرياء » ولكن سرعان ما مسحها بأنامله الفيلسوفة . ولكنه لم يستطع أن يطارد الالم النفسانى الذى انتابه وهو قد جرح فى عزته بغير مبرر وبغير سبب . .

وتساءل : هل من الانصاف ـ على كل حال ـ أن يفاجأ هذه المفاجأة القاسية ؟!

وهل كان من الضرورى أن يدعى لحفلة الزفاف ؟ ؟

اذن لابأس !

بالرفاء والبنين انت ايضا . .

الخطيبات نمرة ((٤ ، ٥ ، ٦))

لقد عتب عليه أقاربه أنه لم يوجه رغبته الى أسرته ، فوقع من نفسه الاحتجاج موقع القبول • ولكن الاسرة القديمة لها تقاليد أمنع من ان تنال ، ولها أسوار من فولاذ لاتقوى على مهاجمتها الافكار العصرية • السفور في هذه الاسرة جريمة ، والحب كفر ، والاختلاط بين الفتى والفتاة عار ! . . .

وبالرغم من ذلك اختار الخطيبة الرابعة ، وجرت محادثات هامسة مكتومة قدسية لاهوتية جديرة بالهياكل والاديرة ، لم ؟! لان الفتاة يوم أن ولدت كان قد تكلم عنها أهل الفتى الفلاني يوم أن ولد ، وصدر العرض من هناك والقبول من هنا . وكلام الاشراف شرف ولو كان عن طفل وطفلة في سني الرضاع ، اذن ليظل كل شيء في ((السر)) خافتا ، ميتا ، طويل الامد ، خوفا على عواطف الاسرة الموعودة ، وحرصا على كرامة الاسرة الواعدة ؟ ! . .

وأين الفتى ! ؟

هو لايزال يتعلم ، فيجب الانتظار حتى يتم دراسته ، ثم يجب الانتظار حتى يكون مستقبله . ثم يجب الانتظار حتى يتكرم فيقول : لا ! . . .

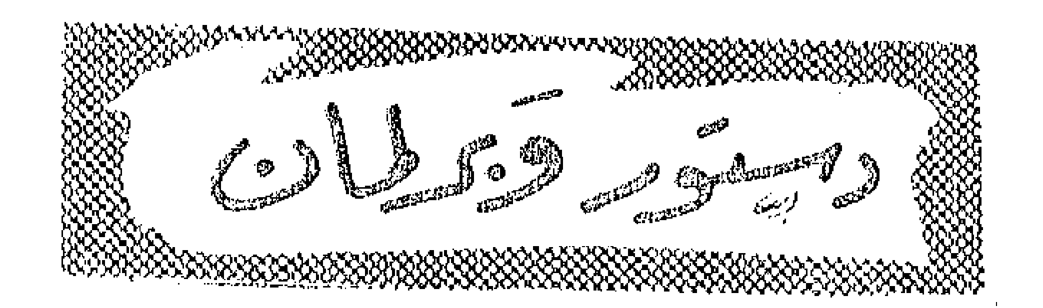
وحينئذ تتحلل الاسرة الواعدة من وعدها . وتصون كلمتها . فتصح اذاعة الخطبة ويجوز الاعلان؟!!! ويرفض صاحبنا كل الرفض هذه ((الرهبنة)) ويبحث عن الخطيبة الخامسة . . .

وهي فتاة استأثرت بالجمال والكمال دفعة واحدة . وكانت غير مرتبطة بوعود أو بعهود • وقطعت الاجراءات شوطا بعيدا وسريعا . وأوشك كل شيء أن ينتهي وان يتحدد . ولكن ! . . .

لكن في آخر لحظة اصطدم حظ أستاذنا العاثر بمشكلة «الرضاع» وجاء دور الخطيبة الاخيرة ولها حكاية طويلة تتلخص في جملتين : ((ان الزواج قسمة ، وربنا ماقسمش)) ! !

***

رسخ في ذهن « الضاحك الباكي » بعد هذا التاريخ الزواجي الطويل أن الحكاية «مقصودة» من القدر ، وان القضاء والقدر لايريدان أن يتزوج • واحترام القضاء والقدر فرض وأمر واجب الطاعة ! . . .



أن صيف سنة ١٩٢٣ كان شيئا جديدا فى حياة مصر ... تمخض تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ عن شيء ظريف اسمه « دستور وبرلمان » ...

رقصت بعض الاحزاب وطربت واطلقت الزغاريد واقامت الزينات ورقمت الاعياد فى رسمياتها . وكشرت بعض الاحزاب عن أنيابها ولبست السواد ونادت بالويل والثبور وعظائم الامور واعتبرت تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ نكبة لا !

ونشبت المعارك ودار الطعن والطحن والضرب والنزال والنضال حتى نادى المنادى فى البوق أن هناك « انتخابات » فاذا بالاحزاب الضاحكة والاحزاب الباكية تقبل على الانتخابات ؟

والنيابة عن الامة شرف أى شرف ، ثم فيها ايضا « مرتب » ..
وفيها أيضا « أبونيه » ...
وفيها أيضا « حصانة » ...
وفيها أيضا نفوذ وجاه ...
وفيها مطامع وآمال ...

***

كانت « النيابة » المودة الجديدة للفخفخة والنفخة وحب الظهور ، كانت رتب الباشوية والبيكوية هى مطمح الانظار فيما مضى . أما فى تلك السنة فقد بطلت المودة القديمة وحلت محلها المودة الجديدة : النيابة عن الامة ! ...

وانكمش الانكليز « الغلابة » فى معسكراتهم ومنازلهم و « قصر نيلهم » و « قلعتهم » و « عباسيتهم » و « أبو صويرهم » خائفين يرتعدون ويرتعشون خوفا من الوحش الفاغر فاه والقادم عليهم بعد حين : البرلمان !!!

ذلك ما تراءى لكل مصرى فى اليقظة لا فى المنام .. فى العلم لا فى الحلم . فى الحقيقة لا فى الخيال ..

وكانت المناصب الوزارية محتكرة فى وسط معين ، وفى شخصيات

معينة . أما اليوم فالمودة جديدة أيضا . والنيابة عن الامة ستكون مزلقا أو مرقى الى الملا والى السماء ...

اذن هيا ياجيوش المؤملين الطامعين الطامحين فازحفى . . .
ازحفى واستميتى وابذلى وحاربى وكافحى وضحى وابذلى المستحيل وغير المستحيل حتى تفوزى بالكنز الثمين . والمجد المتين . والنصر المبين ...

وافتتح ابليس اللعين معركة الانتخابات فضاعت أسر . وضاعت روابط . وضاعت تقاليد . وضاعت ثروات ! ...

***

اقتحم الاستاذ دائرة من الدوائر الانتخابية له فيها عصبية وقرابة وجوار . ولكنها لم تكن من دوائر اسرته المضمونة . تلك احتلها اقرباؤه المقربون . وكانت سنه دون السن القانونية بسنتين . غير أنه كان من ساقطي القيد فى أقليمه فانتهز الفرصة وجال جولته الاولى وحيدا ليجس النبض فاستقبل بالترحاب فى كل دار وفى كل مكان الوجوه كلها باسمة . والعواطف كلها فياضة بالاعجاب والتقدير . ولكنه لم يكن من حزب « سعد زغلول » العظيم . وكان الرجل الفذ قد غمر القطر كله بسحره وسلطانه . وكان مرشحه فى الدائرة رجلا معروفا . له ثروة طائلة وضياع كثيرة . وله مقر وله روابط . ولكن الشاب لايجفل ولا يتردد ، ولم يكن هناك متسع للاختيار فأقدم ! ...

وكان المحامي الناشيء قد جمع ثروة صغيرة من ربحه الخاص ، لاتزيد على خمسمائة من الجنيهات . ودخل المعركة متسلحا بعلمه — وشهادته — وحظه الصحفي السعيد — والخمسمائة من الجنيهات ! ...

اما « منافسه » فلم يكن الا من ارباب الضياع ...

***

كانت وسائله الخطب والبيانات ...

وكانت وسائل خصمه الخراف . والعجول والديكة والفراخ والحمام والطعام والشراب ...

وكان اعتماده على كرامة العلم وحرمة المبدأ ...

وكان اعتماد خصمه على « سعد زغلول » ...

وزحف موكبه الصغير الى القرى والكفور والعزب فكان

يشرب في اليوم اكثر من سبعين فنجانا من القهوة . وكان يأكل اكثر من عشرة ارطال من المجودة . وكان لايملك أن يرفض هذا الضرب من ضروب الاكرام والاعدوه منحرفا عن الاصل جاهلا بالاصول ؟!

وهزم المحامي الناشيء هزيمة « مبلوعة » بعد أن جيش عليه منافسه جيشا عرمرما من اقطاب الوفد وخطبائه . فأضاع وقته واضاع الخمسمائة من الجنيهات ؟! ...

***

وعاد الاستاذ الى مكتبه الريفي يحاول اصلاح ما أفسده الدهر وافسده الانتخاب . وراجع حسابه في البنك فوجد الرصيد صفرا !!!

وفي ليلة من الليالي السوداء الممطرة انتابه السويداء . وهو قد اعتاد في الليل أن يعاشر جدران الغرف والكتب وملفات القضايا ...

ولكنه في تلك الليلة شعر بألم الوحدة وشعر بأنه ثائر على كل شيء : على نفسه — وعلى واجبه وعلى مهنته — وعلى حاضره ومستقبله ...

وكان عائدا من القاهرة . وتذكر وقد انتصف الليل انه لم يقرا بوستة الايام الماضية . فلجأ اليها علة يجد بينها مايخفف من ارعته وأشجانه ...

وفض الخطاب الاول فاذا به من متعهد حفلاته الانتخابية في الدائرة يطالبه ببقية حساب قدرها عشرون جنيها ؟! ...

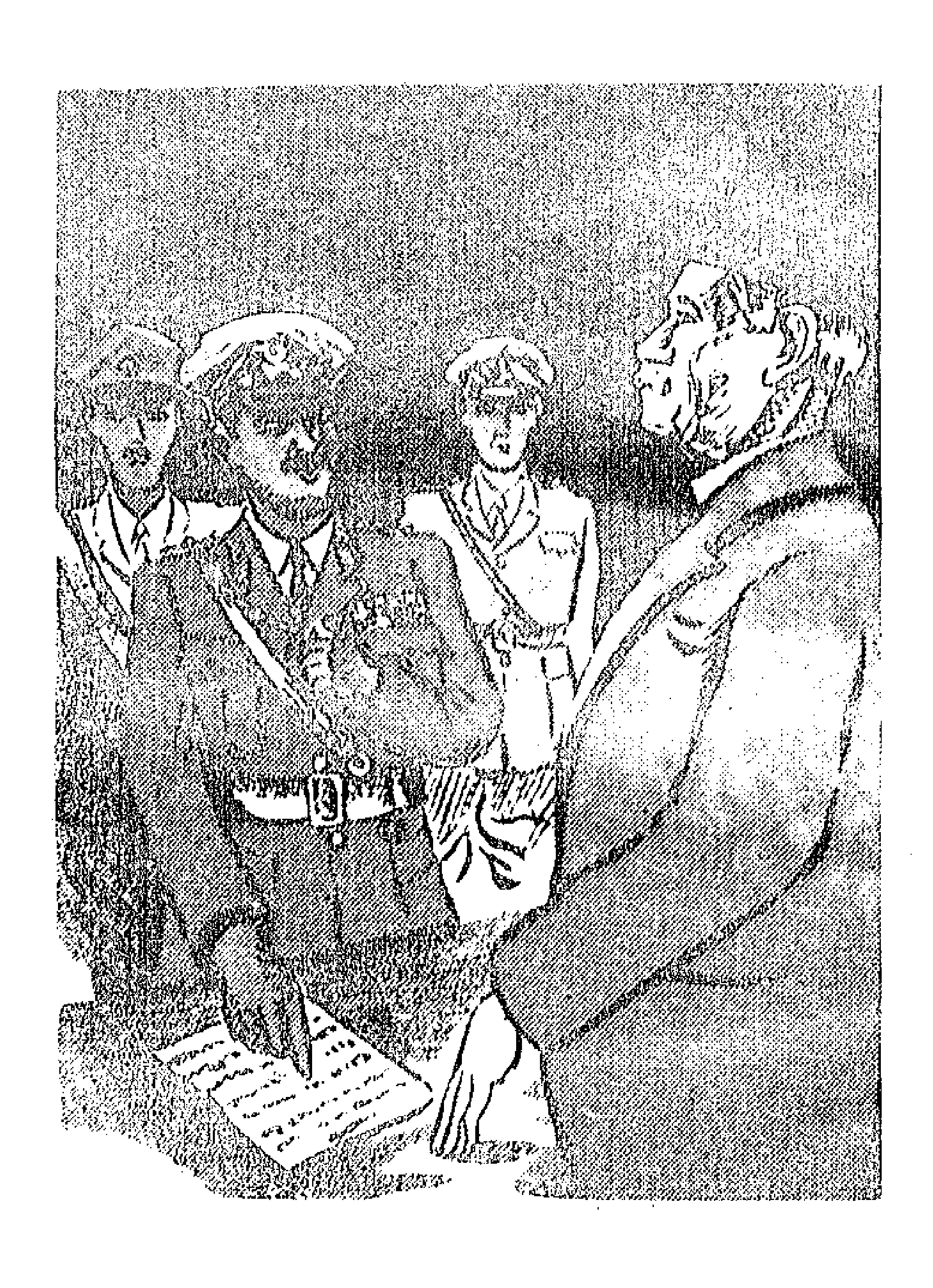
وفض الخطاب الثاني فاذا به من شاب سمدي يهنئه فيه بالسقوط ؟!

وفض الخطاب الثالث فاذا به من مخلص آسف يكشف له عن عيوب قانونية في اجراءات الانتخاب ؟! ...

وفض الخطاب الرابع فاذا به من موكل يخطره بأنه تصالح مع خصمه ويطلب اليه رد ثلاثين جنيها قيمة مقدم الاتعاب ! ..

اما الخطاب الخامس فكان من عائلة منحوسة تدعو له بطول العمر وتطالب اليه ان يمدها بالاحسان !

ورفع الخطاب السادس فاستلم بخط دقيق أنيق اضطربت له حواسه وتفتحت له عيناه ...



واقتحم اللورد ألنبى بجنوده دار الحكومه المصرية وقرأ الـانذاره
الرهيب على رأس سعد زغلول

ان الخط يعرفه . . ولكن لمن ؟
انه خط . . ولكن ليس من خطوط الرجال . .
انه من سيدة ! فمن تكون ؟ ؟

***

والله انها لحكمة !
كان من الضروري جدا ان يخلق الله صنف النساء . .
لهن في الازمات دور لا يلعبه غيرهن ولا يجيده غيرهن . .
انه لم يعرف بعد ممن الخطاب ولا ماهو مضمونه ان كان خيرا أو شرا . .
ولكنه حن للخط وحن للنساء . . . .
وفي الشدة التي هو فيها . وفي الوجيعة التي يقاسيها ، شعر كان عاملا من عوامل الانشراح قدطرا والسلام . .
واخذ يفض الخطاب برفق ولين ووداعة ثم قرأ ما يأتي :
« صديقي شكري :
« ان كنت لم تعرف الخط بعد فلا تتعجل ولا تسرع الى الامضاء . . .
« أنا صديقة قديمة . بل كنت اكثر من صديقة . وقد سمعت نبأ سقوطك في الانتخابات . وفهمت بالبداهة انك ستكون مهتم الخاطر مظلم النفس . فرأيت من واجبي ان افعل شيئا رغم ظروفي ورغم بعدي عنك وبعدك عني . وماذا أملك ان افعل ؟ لاشيء الا ان اكتب اليك هذه الكلمات . . .
« ولست أدري ما الذي حملني على الاعتقاد بان كلماتي هذه ستكون لها مكانتها في نفسك وفي قلبك كما كانت منذ سنين ! . .
« الا يدهشك انني اخاطبك كأني ـ لا ازال ـ من ذوات الحقوق عليك ؟ أغتفر لي جراتي فمن يدري ؟ لعلك نسيتني ولعلني اكون مبالغة في اعتدادي بدالتي عليك . سواء أكان قدري عندك غاليا ام رخيصا فانك لاترفض كلمة مواساة وتشجيع من صديقة لاتزال تشعر بان عليها واجب الحنو في أويقات وجيعتك والمك . وكم كنت احب ان أعلم مبلغ وقع هذا الخطاب في نفسك . ولكنني أعلم انك لاتملك ان ترد .
« انني اتتبع اخبارك بقدر ماتسمح به الاخبار العامة . وثق ـ يا شكري ـ واسمح لي ان اخاطبك بغير رسميات . . انني لن أنسى وفاءك ولا عفتك ماحييت . بل لقد بلغ من جراتي انني

رويت لزوجي كل حكايتي معك . وبهذه المناسبة أخبرك انني سعيدة وانك كنت نبيا صغيرا حين تنبأت لي بأنني سأنسى تجيمتي .. وانا ابنة سفير جميلة تحدق في بعينيها الجميلتين وأنا أكتب اليك هذا الخطاب . وهي هادئة هدوءا ملائكيا على خلاف العادة . كأنها تعلم من طريق الالهام انني أؤدي واجبا مقدسا نحو عزيز علي لا أنساه ولا أنسى ذكرياته ونبله ..

« اذا كانت مكانتي لاتزال كما اعهد في نفسك فاني واثقة أنك ستنسى مرارة التجربة الانتخابية الاولى ..

« عدني اذا طافت بك ذكرى هذا الفشل أن تذكرني . وأن تنسى . وأن تهش . وأن تبتسم ...

« ثم عدني أن تذكرني دائما الى أن نلتقي على وفاء كما افترقنا عن وفاء ... ولك تحياتي .

من المخلصة

« مريم »

(١) برلمان سنة ١٩٢٤ — ١٩٢٥

في يناير سنة ١٩٢٤ — أو حوالي هذا الشهر ان لم تخني الذاكرة — شكل زعيم الامه وقائد جيش الكفاح ضد الانكليز الوزارة ..

وكانت وزارة أثارت العجب وأحدثت في تقاليد البلد الوزارية حدثا جديدا . انبعث منها رائحة الديمقراطية واحتوت بعض « الافنديه » ...

محاولة جريئة تعمد فيها « سعد زغلول » أن يهشم التقاليد القديمة فنجح !! .. وان يذيق « الشعب » طعم الحكم فنجح !... وان يبرهن على أن الامة « مصدر السلطات » فنجح !...

وتوارى « الانكليز » فهلل الشعب وكبر . وطار الناس في جو الاماني والخيال فصعدوا للسماء ، وطاروا الى الجوزاء ...

لم لا ؟!...

بلد مستقل !

وزارة شعبية !

دستور وبرلمان !

سفارات وقنصليات !...

وفى منتصف مارس وقف « شكرى » الراسب فى الانتخابات فى ميدان قصر النيل يتفرج على موكب النواب والشيوخ ورجال الدولة الذاهبين لافتتاح « البرلمان » فصفق مع المصفقين وهتف مع الهاتفين . وتشنج حماسة مع المتشنجين ، ولكن قلبه رغم كل هذه المراسم والمظاهر كان يقول له : لا ! ..

« انها نفخة كذابة ...

« انه طبل أجوف ...

« ان البرلمان خدعة انجليزية ...

« ان النظام البرلمانى ، والحكم الشعبى ، مع الاحتلال ، حقنة من حقن « المورفين » ..

***

وكان من الطبيعى أن تقصى الوزارة الشعبية الموظفين فى العاصمة وفى الارياف ممن لم يكونوا من لونها .. والا كيف تطمئن لهم وكيف تعمل ؟؟ وهكذا عزل البعض ، وحوكم البعض ، وأحيل البعض على المعاش .. فتولدت حزازات وضغائن وثارات ...

وكان من الطبيعى أن يندفع النواب فى سبيل التظاهر بالسلطة ... وهم معذورون فالتجربة جديدة وهم لا يزالون « تحت التمرين » ... وهكذا طغت السلطة التشريعية على السلطة الادارية فكان النواب مديرى أقاليم ، ورؤساء مصالح ، ومديرى ادارات . فارتفعوا بأنصارهم وعيلاتهم وكتموا انفاس منافسيهم وخصومهم ...

وتولدت حزازات وضغائن وثارات ...

وتوارى « الانكليز » وراء كل هذه المظاهر يشربون « الويسكى » على صحة نجاح التجربة !!!

وانشغل البلد الثائر لقضيته ضد الانكليز ، « بالبرلمان » ، عن القضية وعن الانكليز !..

فكانت اللعبة الجديدة ابدع ابتكار جادت به قرائح دهاة بريطانيا فى القرن العشرين !..

***

اما « اللعبة » الاخرى فكانت هى ايضا ظريفة : المفاوضة ! جربها « سعد » مرة فانتهت بالفشل !

وجربها « عدلى » مرة فانتهت بالفشل !

وهاهو ذا « سعد » فى سنة ١٩٢٤ يجربها مرة اخرى ...

وسافر الزعيم يحمل آمال امة : فيه وفى « مكدونالد » العادل المنصف ؟!...

كانت مفاوضة ما اقصرها وما اوجعها ...

جرحت فيها كبرياء الزعيم ، وكبرياء الامة ، وانتهت فى لمح البصر بالفشل !!!

وبدا رد الفعل القاسي يحدث اثره فى نفوس الجماهير الساذجة : ماذا فعل البرلمان ؟ ولم لم ينسحب الاحتلال ؟ واين أين السودان ؟

واخذت الاحلام تتلاشى وتبددها اليقظة ويطردها نور الصباح !

(٢) برلمان سنة ١٩٢٥

حدثت حادثة السردار المشئومة فقامت القيامة واقتحم اللورد اللنبى بجنوده دار الحكومة « المصرية » وقرأ الانذار التاريخى الرهيب على رأس « سعد زغلول » ثم توالت الحوادث بسرعة البرق . فهوت وزارة الشعب وهوى برلمانها ودستورها . وتألفت وزارة مختلطة من حزب الاحرار بناة الدستور وحزب الاتحاد الذى ترعرع فى هذا العام واشتد وصال وجال . ثم جرت الانتخابات على يد « صدقى » فحاصر الزعيم وحبسه فى داره وخفت صوت الشعب . وحدث ائتلاف بين الاحزاب الكارهة لسعد زغلول ، ووفد سعد زغلول

وجرت الانتخابات على هوى الوزارة القائمة وتكون « برلمان سنة ١٩٢٥ » ولكن !..

ولكن كانت ايضا الاغلبية للوفد ؟!..

واكتسحت الامواج موظفى الوزارة الشعبية وانصار الوزارة الشعبية فاصبح كل مدير بلونين ، وكل عمدة بثلاثة الوان ، وكل وجيه باربعة او خمسة الوان ..

وانعقد مجلس النواب ومجلس الشيوخ ثم جرت انتخابات الرياسة فكان « سعد » رغم كل ذلك الاعداد هو المتغلب ! ! ...

وفى ساعتين اثنتين حل مجلس نواب سنة ١٩٢٥ فكانت مهزلة تاريخية وسخرية دستورية عديمة المثيل ؟ ! ! !

وتجلت اللعبة الانجليزية الدستورية البرلمانية مرة أخرى بشكلها المضحك المخجل الظريف والناس ـ بعد ـ لايفهمون ولا يعقلون ! ...

❊ ❊ ❊

وجاء دور « الاحرار الدستوريين » .. ولم يدم ائتلافهم مع حزب الاتحاد طويلا فقد حدثت حادثة كتاب « الشيخ على عبد الرازق » فقذفت بهم وبحزبهم من حالق « واخلى طرفهم » فى الحال وأسدل الستار على برلمان سنة ١٩٢٥ بعد أن ابتلع اموال المرشحين . وبعد أن نكبت الامة نكبة جديدة فى اخلاقها وروابطها وهنائها ...

❊ ❊ ❊

ونسى الناس الانجليز ، والاحتلال ، والحرية ، والاستقلال ، وتضاربوا حول كراسى الحكم وحول مقاعد البرلمان ؟ ! ...

وتمخضت مصر عن ائتلاف عظيم خطير بين الوفد ـ والاحرار ـ والحزب الوطنى

... وتجلت اللعبة الانجليزية مرة أخرى فارخت الحبل « للائتلاف المتين » فدحر خصومه وقسمت الدوائر الانتخابية على أحزابه الثلاثة

وجرت الانتخابات فى سنة ١٩٢٦ ففاز « الاستاذ شكرى » بالتزكية واصبح عضوا فى مجلس النواب ! ! !

(٣) برلمان سنة ١٩٢٦ ـ ١٩٢٨

برلمان حافل بالشخصيات الضخمة من جميع الاحزاب . اما « سعد » فقد تجهم له الانكليز واشترطوا ان لايكون رئيسا للحكومة ! ...

واقام له النواب المنتخبون حفلة شاى فى نزل الكونتننتال لتكريمه . ولكن ظهر انه كان هناك غرض خفى ، فقد قام بعض أنصاره ينتصح له بعدم قبول رياسة الوزراء ، فنهض الاستاذ « شكرى » يعارض الفكرة ويقول انها تقهقر ورضوخ من زعيم الاغلبية لارادة الانكليز ، وقام طبيبه الخاص فأيد النصح بالتخلى عن الحكم ، ثم قام « سعد العظيم » وقال ان صحته لاتساعده على العمل فى رياسة الحكومة ؟ !

وانكشف الستار وضرب الانكليز الائتلاف أول ضربة فنرضوا ارادتهم واقصوا زعيم الاغلبية عن الوزارة فتولاها «عدلى يكن» .

وكان برلمانا حافلا بالعظماء غنيا بخطبائه وحملاته وزحفه . ولكن لا على الانكليز .. وانما على الحكم السابق ، وعلى الاحزاب السابقة ..

أما قانون العمد — وقانون السلاح — وغيرهما فقد لعبت بشأنها السياسة الخفية ونفذت مشيئة الانكليز ...

ومات سعد وبدأ عقد الائتلاف فى الانفراط وانسحب عدلى وثروت .

وجاء « مصطفى النحاس » فضربه الانكليز الضربة القاضية بحكاية « قانون المظاهرات » فاشتد البرلمان واحتد وتجهم وكشر عن انيابه .. ثم ؟ ثم ؟ ثم تقهقر بغير انتظام وانكمش أمام البوارج والمدمرات والطرادات ..

ولعبت الدسائس وانسحب محمد محمود وأقبلت الوزارة الشعبية وحل مجلس النواب ووقف الدستور ..

ولعبت اليد الحديدية المحمدية المحمودية دورها فبطشت واقصت وقربت . وفاوضت المفاوضة الخامسة بعد مفاوضة ثروت الرابعة ثم فشلت وانهارت وتوارت عن الانظار ..

(٤) برلمان سنة ١٩٣٠

وانتصر الشعب مرة أخرى وتولت الوزارة النحاسية الحكم وفاوضت وفشلت للمرة السادسة . ثم اوتطمت بقانون محاكمة الوزراء . واستقال النحاس استقالة لاتخلو من المؤاخذة السياسية . وتجلى « صدقى» فى الميدان

(٥) برلمان سنة ١٩٣٠

وعدل الدستور وقانون الانتخابات وكون مجلس النواب الخامس والقراء يعلمون جميع التفاصيل فلا داعى للاشارة اليها . ولا يعلم الا الله مصيره

***

هذا هو المرور السريع على نظامنا النيابى . والدستورى .

والحكمى رأيت من واجبى ان ادونه فى هذه الصفحات ليكون القراء على ثقة من ان «الدستور والبرلمان» لعبة انكليزية مكشوفة شغلت زعماءنا عن القضية العامة ، الى قضيتهم الخاصة .. وحولت جهودهم من ان تتجه ضد الانكليز الى أن تتجه ضد بعضهم بعضا

وكانت هذه اللعبة نعمة وبركة على انكلترا ووبالا على مصر وعلى مرافقها الحيوية . ومصالحها الاقتصادية واحوالها الاجتماعية، فتدهورت جميعا وهبطت للحضيض !. .

ولا تزال الاحزاب تتناحر حول الحكم ولمن يكون ؟ وحول الكراسى النيابية وان تكون لاولا يزال المصرى هو عون الانكليزى ضد المصرى ، ولا تزال الفوضى ضاربة الاطناب

اما الاستقلال . .

واما الاحتلال . .

واما القضية المصرية . .

فسلوا عنها ضحايا سنة ١٩١٩ ، وسلوا عنها الخيال ؟ ! !

. . . .

. . . .



ان النائب المحترم قد ارتدى في صباح يوم من أيام سنة ١٩٢٦ بدلته الرسمية الانيقة هو وأحد زملائه النواب ليحضروا جلسة افتتاح البرلمان العظيم.

واقلتهما سيارة فخمة سارت تتهادى بين الجماهير الحاشدة وبين رجال البوليس والمدافع الداوية وبين الهتاف الحماسي المرتفع للسماء. فكانت الساعة ساعة من ساعات العمر النادرة فيها كل عناصر الزهو والغرور والاعتداد بالنفس. والطموح الى العلا ..

وفي دار البرلمان وجد النائب المحترم نفسه بين عظماء البلاد وكبرائها واقطابها والقابضين على زمام الحكم. ثم شعر لاول مرة أن هؤلاء جميعا سيكونون تحت رقابته وتحت هيمنته وسيطرته. ثم رفع بصره فوجد شرفات البرلمان حاشدة بسفراء الدول والصحفيين الاجانب وعقيلاتهم ثم بالامراء والعظماء وكبار ذوي الحيثية من النساء والرجال

وزاده غرورا وسعادة انه كان أصغر أعضاء البرلمان سنا فجلس بجوار سعد زغلول واستقبل في السراى الملكية عملا بالدستور وفخم أمره وكبر. وكانت له في البرلمان ــ بعد ذلك ــ جولات وصولات ليس هذا مكانها وانما نحن نسرد قصة اجتماعية أكثر منها سياسية. فلنهمل السياسة من الان فقد أضحكت وأبكت « الضاحك الباكي » وهو اذ يذكر اليوم تاريخه السياسي يخلص الى نتيجة محققة أدركها قبله شاعر مصر القومي رحمه الله اذ قال:

واذا سئلت عن الكنانة قل لهم هى أمة تلهو وشعب يلعب..

❊ ❊ ❊

كان لابد النائب المحترم من ان يسكن في القاهرة حيث مجلس النواب. ولما كانت عائلته مكونة منه؛ ومنه؛ ومنه؛ فقط..

فقد اتفق مع احد أقاربه الاعزاء الذين مزجوا بين عاطفتي القرابة والصداقة فاشتركا في استئجار «شقة» في مركز يقولون عنه انه «سنترال» وعاشا معا من سنة ١٩٢٦ حتى السنة التي تنتهي ـ أو التي شئت ان تنتهي فيها ـ هذه القصة ! ...

وكانت «الشقة» مكونة من صالة رحبة . وغرفة استقبال . وغرفتي نوم ، وغرفة للمائدة . الى غيرها من الملحقات التي توجد في مثيلاتها من المساكن العادية ..

وزين الشريكان «الشقة» بالورق الجميل ، ووضعا فيها تليفونا ، وأثثاها «بموبيليه» لا بأس بها . حتى اذا فتحت أبوابها وافتتحت رسميا أطلق عليها الاخوان والخلان اسم «الجارسونيرة» ...

لا أدري لم يصدم هذا اللفظ النفوس وهو تعبير صحيح بلفظه ومعناه ينطبق تمام الانطباق على مساكن الاعزاب ؟ !

ولا أدري لم كانت تكال التهم جزافا الى هذه «الجارسونيرة» ويعلم الله انها مظلومة ؟ ! يعلم الله انها كانت جامعة اخلاقية سالت فيها دموع . وتهذبت فيها اخلاق . وصلحت نفوس . واستقامت شخصيات . وتطهرت سير . وتجلت علوم وفنون . وفاضت عظات وعبر ... ثم يعلم الله انها كانت دار مواساة وسلوى وانصاف للمظلومين والمظلومات من الظالمين ... ثم يعلم الله ان هذه «الجارسونيرة» كافحت في سبيل الحق حكومات وسلطات وحيثيات حتى انتصرت اخيرا بفلسفتها ونبلها وحماسها للحق على المال والجاه والسؤدد والنفوذ ... بغير مقابل ؟ ! !

بل يعلم الله ان «المقابل» كان جحودا كافرا . وانكارا لهذا الجميل ! ...

نعم ...

كان يستقبل الصديقان القريبان الشريكان في هذه «الجارسونيرة» طوائف من أجمل وأزهى وأزهر زهرات الجنس اللطيف من كل لون ومن كل جنس ، ومن كل بيئة ، ويعلم الله ما كان تاريخ هذه «المؤسسة» تاريخ مجون أو لذة ، أو سكرة أو هوى فاسد ، وانما كان تاريخ آلام ، ولواعج ، وأوجاع ، ودموع ، وشجون ! ...

كشفت حياة «الجارسونيرة» للصديقين القريبين الشريكين سر الحياة الاجتماعية في هذا القطر البائس ، وبالاخص في عاصمته

الخلابة الساحرة الفاجرة ، كشفت لهما القناع عن أسرار البيوت . وأسرار السياسة . فهالهما ان بناء الاخلاق فى هذا البلد قائم على اساس متداع ضعيف وان النكبة أقسى وأمر مما يخال الخيال . والم وأوجع مما تصور المبالغة ومما يصور الابتكار ! ...

ومما جرى ذى « الجارسونيرة » ساعة كتابة هذه السطور ، قد هجرها الصديق القريب الشريك بعد ان أتم الله عليه نعمته بالزواج ، فبدلت وامست مسجدا صغيرا قام فيه منبر الاخلاق ، واحتشدت فيه « الذكريات » النقية ، وشملت الوحدة الاستاذ « شكرى » فاخذ يدون مذكراته ثم دفعها لصديقه مدون هذه القصة ليصوغها للقراء فى قالب العظة والدرس لعل فيها بعض العلاج ! ...

١ — ريتا ...

" RITA"

فى « برمنجهام » بانجلترا هبط الطالب المصرى « سعيد » ليلتحق بجامعة من جامعاتها ، لا يعنيكم ولا يعنينى ان تعلموا ان « سعيدا » هذا ولد فى قرية صغيرة ، وفى دار صغيرة من قرى ودور اقليم القليوبية . أما ابوه « الشيخ مصيلحى » فكان رجلا لا من الوجهاء . ولا من انصاف الوجهاء وانما من « ارباع » الوجهاء . من الذين يملكون عشرين فدانا لا أكثر ولا أقل ... ووالدة « سعيد » كانت — واظنها لا تزال — من الطراز القديم . الذى لم ير العاصمة فى حياته الا مرتين اثنتين ، لزيارة « السيدة زينب » ليس الا ... وفاء « لنذر » ، وانجازا لوعد وعهد ! ...

نزل الفتى « سعيد » فى « بنسيون » لعائلة انجليزية مكونة من أب « حداد » وأم عجوز ، وفتاة تسمى « ريتا .. » ..

وكان الشاب فى ايامه الاولى وديعا ، مؤدبا ، خجولا ، مرتبكا ، ولكن بارك الله فى اخوانه ومواطنيه هنالك : علموه ولقنوه الدروس ولمحوا ان كلا منهم يصطحب فتاة فى محال الشاى ، ودور السينما ، ورحلات آخر الاسبوع . . شاغل الفتاة « ريتا » بطرف المصرى الجذاب فانقادت الى طرفه ودعته . وابت كبرياؤد القومية فى مهجر المسلم الا ان يتظاهر . وداء المصرى — كبيرا او صغيرا — هو التظاهر ، والتظاهر ارفع مرتبة من المورد . فاندفع وتلقى « الشيخ مصيلحى » الطلبات

بالبريد وبالتلغراف مصحوبة بمعاذير المصروفات المدرسية ورحلات الاجازة ، والمرض القاسي والكتب ، وأيدت دموع الام طلبات الابن الوحيد فرهن الاب المسكين ايراده كله ، على فلذة الكبد فى « بلاد الغربة » ! ! . .

ثم استدان . . . .

ثم باع . . .

والابن فى فترات الاستدانة ، وفترات البيع الودى والجبرى ، يتمادى فى عواطفه وفى طلباته والشهور تمر والاعوام تمر والابن لا يرحم والاب يقول : لا حول ولا قوة الا بالله . . . .

عرفتم « سعيدا » فى مصر وفى مسقط راسه ، وعرفتم فى مصر من هو ابوه ومن هى امه ، وما هى داره ، وما هى ثروته المنتظرة . فهل عرفتم فى « برمنجهام » من هو ! . .

تقول « ريتا » لامها العجوز : ان اباه من كبار « الباشوات » حكام المقاطعات . وملاك المزارع . . ان عندهم ثلاثة اسطبلات للخيول السباق . ان الجياد « سرحان » و « تت بت » و « سلطان » تربح الاف الجنيهات فى كل موسم . . ان عندهم غابة عظيمة للصيد والقنص . . ان فى قصرهم الريفى تكعيبة عنب تمتد الى مسافة كيلو مترين داخل الاسوار . . . اه يا امى : اننى لسعيدة ، وقد احببت مصر الغنية بلد المعجزات والثروات ! . . .

وتقول العجوز باسمة : صدقت يا « ريتا » أبناء الارستقراطية هم الذين يحضرون لانجلترا للعلم . حظ سعيد يا ولدى !

ويحضر الاب « الحداد » فى المساء « فتدردش » له العجوز وتروى الاعاجيب . فيبتسم الاب الطيب ويقبل امراته فى سكون الليل فرحا بسعادة الابنة المحبوبة . .

***

وتمر اعوام الدراسة العادية و « سعيد » لا يزال يدرس . .
والاب لايزال يرهن ويبيع . .

والام لاتزال تبكى . .

وفى ليلة سوداء يرد خطاب من انجلترا . فيفضه الأب بلهفة فيجد فيه الصاعقة : صورة فوتوغرافية لسعيد ، ولزوجته « ريتا » ولابنهما الصغير « كمال » ! ! !

***

ويمر عام ، ثم عام ..

ويحصل « سعيد » على شهادته العليا من جامعته الانجليزية ...

ويعود مع زوجته وابنه ..

هاهى ذى الباخرة تصل الى بورسعيد ..

الى الوطن المصرى ..

وتركب « ريتا » القطار فى برنيه ..

والخيال لايزال يرتفع بها الى السماء ..

ولكن القطار قذر . والحر شديد — والغبار يكتم الانفاس .. أين الجبال ، والهضاب ، والخضرة الفرعونية ، والمناظر الطبيعية ؟؟ لاشىء ...

وهذه الجلاليب . وهذه الزعابيط ، وهذه الأزياء المتنافرة ، انها أشياء تتنافر والذوق السليم ...

ويصل القطار الى القاهرة حوالى الرابعة والنصف مساء ..

وتذهب الاسرة « المختلطة » الى فندق ...

وتمضى فيه أياما ...

ان حر القاهرة لايطاق . وقد بدأت الانكليزية الصغيرة تتضايق ...

أين الباشا الوالد . وأين « الليدى » الوالدة . انهما لم يحضرا ولم يذهب اليهما الابن العزيز . انها جد تواقة الى « الريف » البديع الخلاب !؟

وانبأها « سعيد » فى صباح احد الايام بالسفر لزيارة الوالد . وركبا القطار ومعهما الطفل العزيز . وتوقف القطار على محطة صغيرة . ان « الرولز رويس » لم يكن فى الانتظار ؟! وكذلك الخدم والحشم بالملابس القصبية ؟! كان فى الانتظار « حماران » عاديان . ركب « سعيد » أحدهما وأمامه ابنه . وركبت « ريتا » الثانى بصعوبة وخوف . اما الوالد فقيل انه مريض فى الفراش . وبجوار الحمارين وقف بعض أقارب « سعيد » بملابسهم القروية المزهرة . كانوا بعض « نبلاء » الاسرة الكريمة ؟! وسار الحماران الهزيلان بالاسرة المصرية — البرمنجهامية سيرا بطيئا متعثرا حتى وصلا بالركب الميمون الى القرية . فاستقبلتهم النساء ،

والمستنقعات ، وطائفة من الديكة والفراخ ، والاوز والجسديان والكلاب ...

وأمام دار أكل عليها الدهر وشرب ، ولعب بها البلى والزمن ، وقف الركب ! ...

هذا هو القصر المنيف ! ...

أين تكعيبة العنب التي طولها كيلو متران ؟!

أين اسطبلات الخيول ؟! ...

أين أين غابة الصيد والقنص ؟!

أين يا « سعيد » ما أنبأت به « رينا » وما أنبأت به أمها العجوز واباها « الحداد » ؟! ...

خيال ...

وأكاذيب ...

❋ ❋ ❋

وحاول الوالد المريض ان يرحب بقلبه ولسانه ، الم يكن بطبعه مصريا وديما مضسيافا ؟ والم يكن بطبعه أبا حنونا رغم كل الظروف ؟!

والام : وارحمتاه لها ...

وانتهت الزيارة و « رينا » ببرودها الانكليزي ، وجمودها البريطاني ، تحاول ان تخفي وجيمتها

ولكن هيهات ...

وعادت الاسرة الى مصر ، فسكنت شقة متواضعة ، ومد الوالد ابنه بكل ما استطاع ، فكانت المعيشة أضيق وأحقر من معيشة «الحداد» الانجليزي وزوجه العجوز ومضت أيام بؤس وشقاء ، وعاودت «رينا» كبرياؤها الانجليزية فلم تطق الصبر ، فلجأت الى الوكالة البريطانيــة وأنت واشتكت ، وتحت عوامل التأثر والتوسل ألحق «سعيد» بوظيفة في « بني سويف » فانتقل مع زوجته وابنه ومرت شهور فولدت زوجته بنتا اسماها «فردوس»

❋ ❋ ❋

من « برمنجهام » الى « بني سويف » ...

ان «رينا» حانقة ، ولكنها أم !

وماذا يتلقى الطفلان المصريان من الام الانجليزية ومن خلق الام الانجليزية ؟!

كره مصر ! وكره الاب المصري! وكره كل ما هو مصري .. وبدأ «الزواج المختلط» يثمر ثمرة المر ، وينتج محصولا من الصبر والحنظل

❊ ❊ ❊

وفي «بني سويف» فتاة مصرية ناظرة لاحدى مدارس البنات .. أخذت تشاغل سعيدا ويشاغلها سعيد !

والدم المصري يحن للدم المصري

واستفحلت العلاقة فأصبحت غراما ...

ثم تمخضت فولدت «زواجا» .

وكشفت الزوجة الانجليزية «الجريمة» في نظرها فسافرت الى القاهرة وسعت سعيها الخطير . وانتهى الامر بالطلاق ! ..

وحيل بين الام وولديها فهددت بالقاضاة . وهددت بالنفوذ المقيم في قصر الدوبارة . وهددت بالمسدس ! ...

❊❊❊

ووظفت «ريتا» سكرتيرة في مكتب أحد المحامين الانجليز . ونزلت في «كنوت هاوس» فتعرف اليها الاستاذ «شكري» وتعرفت اليه ...

غير أنها لم تطق البقاء في مصر وحنت الى وطنها العزيز . ووسطت «الاستاذ شكري» في نهو المشكلة القائمة بينها وبين زوجها بشأن ولديها . فهمه الامر وافهمها بروح المصري أن الولدين مصريان مسلمان . فمن المستحيل أن تمكن منهما في غير جو مصر . وغير الاسلام ! ...

وفي «الجارسونييرة» عقدت جلسات اثار الزواج المختلط ونكبات الزواج المختلط . فلم تسفر عن نجاح !

ولكن «ريتا» انجليزية ووراءها قصر قصر النيل . والقلعة . وفي بحسارها طرادات وبوارج ومدمرات . وجن جنونها اذ بلغها أن الطفلين يعانيان من عنت الست الناظرة . ومن الاهمال في التربية فحسمت الامر . واستأجرت سيارة من القاهرة وأسرعت بها الى «بني سويف» واختطفت الطفلين من على باب المدرسة !

وعلم الوالد بالاختطاف فطاردها في الاياب بسيارة حتى التقى الخصمان في غرفة مأمور قسم عابدين !

❊ ❊ ❊

ودق جرس التليفون فى الجارسونيرة واستدعى « الاستاذ شكرى » فبادر الى غرفة المأمور ...

وسمع الحكاية ...

وطلب اليه «سعيد» ان يكتب بالطريقة القانونية تنازلا من حضانة الطفلين المصريين المسلمين للام الانكليزية . مقابل عدم مطالبتها له بأجر الحضانة ولا بأية مصاريف او تكاليف ؟ !

فأسر اليه على انفراد ان الام مزمعة السفر الى انكلترا ؟ !

قال الاب العظيم : ليكن !

قال الاستاذ : والولدان ...

قال : ليذهبا حيث يشاء القدر !

قذفه الاستاذ بنظرة ازدراء رهيبة . ثم قبض على يديه بيدين مرتعشتين وصاح فى وجهه : انك لنذل !!!

« اننى كمحام من واجبى ان احرر ماتريد . ولكنى كمصرى وكمواطن . العنك واحتقرك ...

قال سعيد : انها امرأة شريرة، وهى تهددنى بالقتل . ولا يبعد ان تفعل ، بل انى لمتأكد ، فاكتب لقد صممت ! ...

وقالت « ريتا » هيا . هيا . اننى سأسافر الى انكلترا بعد باكر وأريد أن أعد حوائجى وليس عندى وقت ...

قال الاستاذ : لن افعل ... اننى بذلك أقضى على تربية الطفلين . وعلى دين الطفلين . وأرتكب جرما قوميا خطيرا . احذر ياسعيد وفكر وراجع نفسك ! ...

يجرى كل هذا فى غرفة المأمور . والطفلان يحدقان بعيونهما المصرية الحلوة وبسذاجة الابرياء ولا يفهمان شيئا ...

وتحرج الموقف وتعقد . ولكن « سعيد » لم يجد فى الامر حاجة لمحام . فكتب ورقة واشترط فيها شروطه الخاصة بالمصاريف ووقعت « ريتا » فى الحال ...

ثم نادت : كمال ! فردوس ! ..

فرد الطفلان : ماما ! ...

قالت : قبلا « بابا » ...

فقبلاه ، ودموع « الاستاذ شكرى » تسيل أسى وغيظا ...

واحتضنت « ريتا » الطفلين وحيث الموجودين واقتادتهما الى السيارة التى انطلقت بسرعة البرق الى المستقبل المجهول فى انكلترا ...

وانسحب « سعيد » و «المحامى » المفجوع بذل العار والشنار بعد أن خسر المعركة • وخسرا المصريين المسلمين الصغيرين : الى ماشاء الله ! . . .

. . . .

. . . .

٢ ـ سعاد . . .

كانت فى السابعة عشرة من عمرها لما زوجوها لرجل كبير من رجال البوليس . يبلغ من العمر الخامسة والاربعين . . .

وكانت تحب ابن عمها . وابن عمها يحبها . ولكن أسرة الفتاة وأسرة الفتى كانتا متحدتين فى الحيلولة ضد الزواج . . .

وعاشت الصغيرة مع رجل البوليس الكبير عيشة تعسة . وعجيب هذا النوع من الزواج . وعجيب هذا الاتحادالاكراهى بين السن الصغيرة والسن الكبيرة . واعجب منه عند ماتصل الزوجة لسن السابعة والعشرين وعند مايصل الزوج لسن اليأس اسوة بالنساء . . .

كانت الزوجة الصغيرة لاتزال تحن حنين القلب وحنين الدم لابن العم حبيب القلب وحبيب الدم . وكان فتى وسيما جميلا يناسبها فى السن وفى الجمال . . .

ومرت سنة ثم سنة . والفتاة لاتنسى عهدها والفتى لاينسى عهده . واخيرا لم تطق هى ولم يطق هو ، فدبرا معا . وتآمرا معا . وانتهى الامر بطلاق الزوجة الصغيرة من الزوج غير الصغير . .

❋ ❋ ❋

وتزوج الفتى من الفتاة . . .

واستقر الزوجان الصغيران المحبان الجميلان فى مدينة هى عاصمة اقليم من اقاليم الدرجة الاولى . . .

وكان بيت الزوجة الصغيرة ارشق بيت فى المدينة . وانظف بيت فى المدينة . فان الفتاة نسلت من اصل تركى . وكانت ربة منزل تمتلؤ بهجة ، ونورا وعاجا . . .

❋ ❋ ❋

ولغطت سيدات المدينة بجمال الفتاة . فكانت ريحانة المجالس ، ووردة ايام الاستقبال ...

ومدير الاقليم كان رجلا كبيرا ، ولكن قلبه كان لايزال كقلوب الصغار ...

وترددت الفتاة على والدته العجوز بأمر زوجها الضابط المرءوس قياما بواجب المجاملة . وقياما بواجب الملق والدهان ..

والتقى المدير بالفتاة . فرآها أنها جميلة جمالا يلفت النظر ويستحق الانتباه ...

ولاحظت الفتاة فى يوم من الايام عطفا خاصا من سعادة المدير فأجفلت وجزعت ...

وبادرت الطيبة الساذجة الى زوجها الشاب تفضى اليه بالملاحظة الخطيرة فابتسم وقال : العبى دورك ؟؟

قالت بهلع : ماذا ؟!

قال : سايريه وجامليه ولكن حذار ...

قالت : يارجل !

قال : الا تثقين من نفسك ؟

قالت : كل الثقة ...

قال : علام الخوف اذن ؟ ... تستطيع أن نستفيد ...

((نستفيد))

لفظ ومعنى عثرت بهما كثيرا فى قواميس الزواج !..

لا اريد ان احمل الطبيعة البشرية حملا ثقيلا ينفر منه الاحساس وتمجه الاخلاق . ويأباه الدم . فاتهم بعض الازواج الرجال بأنهم يستغلون الزوجات لاقصى حدود الاستغلال . ولكنى اقرر معتدلا أنهم يلعبون بالنار عن جهل ، وعن فرط ثقة ، وعن طيبة ، وعن قلة اختبار ، وعن ضعف مادى ، فيتسامحون . ويتغاضون . ويمهدون . ويفتحون الطريق . ويطلقون اول خرطوشة . ولايقدرون النتائج بعد ذلك لانها كانت فى نظرهم بعيدة عن الخاطر البليد الغبى غير اللماح

***

انتاب الفتاة الذهول من هذا التصريح الخطير . ومن هذا

« الاذن » المخنث فرشقت الزوج بنظرة ازدراء ولاول مرة تنهدت ذاكرة الزوج العجوز الرجل ! ..

ومهما قيل عن غريزة المراة . ومهما قيل عن عناصر اغرائهـا واستمالتها فانى اظن انه لا المال، ولا الجمال ، ولا خفة الظل ، بمرتفعة من ناحية التقدير الى درجة « الرجولة » !..

الرجولة هى ميزة الرجل . وهى المشتقة منه لفظا ، ولغة ، ومعنى . ولئن خدشت هذه « الرجولة » فى الزوج مرة فقل على الهناء العائلى السلام !..

***

ان الضابط الصغير كان طموحا تواقا الى الرقى . وكم دفعت شهوة الرقى الى اعماق اخلاقيه سحيقة . دع هذه الوسـيلة الوضيعة من وسائل تحقيق المآرب والمطامـع . وانظـر فى الازمات السياسـية المصرية كم لعبت « شهوة الترقى » دورها اللعين العفن القذر فكانت الاخلاق هى المنكوبة . وكـانت الاخلاق هى المدحورة المقهورة . وكانت الاخلاق هى الضحية وهى الفريسة..

وسرت العدوى سريان النارفى الهشيم . فانتقلت الى العمد وشيوخ البلد ووجهاء القرى والى العمال وغير العمال فاصطبغوا بكل لون . وقبلوا كل يد . وآزروا كل حـكم . ونافقوا لـكل ذى سلطان ...

وشهوة الترقى ، وخشية الضرر ، ورغبة الانتقام ، كلها نزوات تستوى وتتسابق وهى وثيقـة الاتصال بعضها بالبعض الاخر ، وهى اليوم المظهر النشيط العامل فى حياتنا السياسية والاجتماعية

***

الفتاة لم تجرب الزلة بعد ..

هى الثائرة على الزوج وعلى سعادة المدير ...

ولكن المراة الضعيفة فى كفاحها، تقوى تحتاج الى سند يسندها ، وعضد يعضدها ، وعامل يقويها ويشد ازرها ...

أين هو ؟ ؟

أهـو الزوج الذى يـريد ان « يستفيد » ؟..

أم سعادة المدير المحب الولهان ؟...

وتشجع سعادته فعطف على المراة وعلى الرجل :

أما تلك فقد أغرقها بالهدايا الذهبيـة ، والماسـيه ، والحريرية ... وبالحلوى !

وأما هذا فقد أضاف الى نجمته، نجمة ...

وتوثقت العلاقة . وتعددت الزيارات . والفتاة تتدرج من العبوس الى الابتسام . ومن النفور الى الاستسلام . ومن القلق الى التسليم بارادة الزوج وارادة القدر ...

ولكنها لم تسقط بعد في عرف الحقيقة وفي عرف الحق وفي عرف علام الغيوب ...

هي لا تزال عفة الثوب ، نقية الازار ..

ولكنها سقطت وانتهت في عرف الناس !

والناس في عواصم الاقاليم لماحون ، فضوليون ، يدركون بسرعة البرق حتى لأكاد اتخيل انهم يدركون بطريق الالهام ..

وانطلقت اشاعة في البلد بأن سعادة المدير و « سعاد » قد أصبحا عشيقين جسما وروحا ، ودما ...

والفتاة مظلومة ...

وعواصم الاقاليم بلاد محدودة الدائرة ، ضيقة المساحة ، محصورة الوسط ، والاشاعة قد دوت دويها ، وأنذر بها الطبل والمزمار ...

وحمل البريد الى الضابط ذي النجمتين خطابات بدون توقيع فهم منها أنه أصبح محط الانظار المزدرية ، وهدف الالسنة الشريرة فجن جنونه ، وتحركت — بعد طول الرقاد — رجولته !!.

وفي يوم من الايام دعا سعادة الحكمدار سعادة المدير الى الغداء .. ومثل هذه الولائم تجمع على موائدها كبار الموظفين وكبار الاعيان . وكان الحكمدار يسكن شقة في الدور الثاني من عمارة . والضابط يسكن الشقة التي فوقها . وتناول المدير الغداء وشرب القهوة . ثم نهض للانصراف ...

ويشاء سوء الحظ أنه في لحظة نزوله على السلم هو والجيش الجرار الذي يتبعه ... ووراءهم الضابط . كانت «سعاد» تلقى بعض الزهور الذابلة المختلفة الانواع والالوان على السلم . فسقطت على رأس المدير . وتطلع الجميع الى فوق فوجدوا الفاتنة تلقى الزهور وتنثرها على سعادة المدير ؟!..

أليس كذلك ؟

هو كذلك واحسرتاه . وتنتشر الحكاية بسرعة البرق في البلدة فكانت هي تسلية المجالس وحديث السهرات .

وانتقلت الى النساء فطرزتها بالمبالغات وبالمضاعفات والفتاة البريئة مظلومة ! ...

وكاد الفتى يصعق من هول الموقف . حتى اذا ودع سعادة المدير الى المكان المناسب عاد ادراجه وقد ثارت « رجولته » فصفع الزوجة البريئة صفعة قاسية ثم أردفها بيمين «الطلاق»!

جمعت البريئة المظلومة العفيفة حاجاتها مطرودة شر طردة من عاصمة الاقليم .. مثلومة الشرف ، ساقطة فى نظر الناس جميعا لافى نظر الله ..

عادت الى القاهرة فارتمت في أحضان أمها العجوز الفانية تبكى وتلطم وليس لها فى دنياها الاالام والا ايراد ثلاثة جنيهات فى الشهر الواحد استحقاقها في وقف يصرف شهرا ويتأخر شهورا .

***

قاومت الفتاة أمواج الخضم الدنيوى المتلاطم الامواج وكادت تظفر بخطيب . غير أنه ما لبث أن اتصل بتاريخها الكاذب مع سعادة المدير حتى أفلت وفر هاربا وظفرت بثان وثالث فكانت العاقبة واحدة

وامتنع صرف الاستحقاق لها بسبب نزاع جد فى الوقف فأغلقت أبواب الحياة فى وجهها ثم جرفها التيار زهرة ندية يانعة الى حيث غيب مثيلاتها فى قاعه حتى أصبحت فى سنة ١٩٢٦ من زائرات الجارسونييرات !

٣ — لولو

«لولو» فى سن الخامسة عشرة جمالها جمال صحى منتعش . هل تفهمون ماذا أعنى بالجمال الصحى المنتعش ؟

هو الجمال المدملج الرياضى المتناسب الاجزاء والتقاطيع . الجمال الذى يثور على حياة المخادع والبيوت والذى يقفز الى شاطىء النهر ، وأشجار الحدائق . والهواء الطلق ، والخلاء ، والذى يمشى على القدم كيلو مترات والذى يجرى . وينط ويحرك العضلات . ويملا الصدر هواء . ويتمتع بنعمة « الشمس » عدوة الامراض والميكروبات ...

كانت تسكن مع أسرتها فى «النيل» بجوار الجزيرة . والجزيرة فيها ارستقراطية . وجمال . وسيارات . وأماني وأحلام ..

وهى قد اعتادت أن تتريض فى عصر كل يوم . اما على القدم أو فوق «البسكليت» .. وشاءت الصدف أن تلتقى كل يوم بسيارة فخمة فاخرة يقودها شاب فخم فاخر ...

وأدت هذه الزمالة فى اللقاء وفى النزهة الى النظر . فالى الابتسام . فالى الكلام ...

ولكنه كان نظرا عاديا . وابتساما بريئا . وكلاما تابعا - فقط - للسان ...

***

فى الجزيرة أو فيما يلى الجزيرة سيدة كان يجب أن يجللها جلال السن ووقار الارستقراطية وقناعة الحياة المسامحة باليسر وبالعمار . ولكنها نشأت - أصلا - فى بيت من البيوت الخاملة ثم شاء لها الحظ الطيب أن تصبح زوجة لاحد السراة الوجهاء . وأن تتربع على عرش قصر عظيم وعلى قلب زوج مستسلم . السلطة فى يمينها والمال فى يسارها والاهواء تستمدمها وميولها ...

اذن ليصبح القصر ندوة لا للعلماء والاقطاب والساسة والادباء . وانما للمتعة والهوى واللذة والتسلية . وداء السيدة العضال لا يشفيه الا أن تجمع الدار الفاخرة من حين لحين بين العشاق وجنود العواطف فى سهرات .. وحذار حذار أن تسىء الظن بوسط الآكلين والشاربين والراقصين والضاحكين والمتهامسين من رجال ونساء ! فكلهم من طبقات المتحرزين من الدرجتين الاولى والثانية ... فهناك الوزراء والكبراء وكبار الموظفين والشبان الوارثون ... وهناك «المقابل» من السيدات الكريمات الموسرات ... ثم هناك «كمالة الطقم» من مطربين ومطربات وموسيقيين وموسيقيات ...

***

الشاب الفخم الفاخر ذو السيارة الفخمة الفاخرة وزميل الصغيرة ذات الجمال الصحى المنتعش فى اللقاء وفى النزهة من رواد هذا المعهد الجليل ...

- فى أذن للسيدة الوقور الغاوية الهاوية أن تدعو الفتاة وأهل الفتاة الى سهرة . وان تدعوه وأسرته الى نفس السهرة . ليتم التعارف وليبدأ العمل ! ...

وكانت السيدة الوقور عندظن صديقها الشاب بمهارتها وبراعتها وكفاءتها فكانت السهرة وكان التعارف ! ...

❊ ❊ ❊

وبدأت الصغيرة تميل . وبدأت تحن الى حياة الارستوقراطية . وحياة البذخ . وحياة اللهو الرفيع الشأن ...

ولكن بالخيبة الامل ! ان الفتاة قد جاءها خطيب . ولكن ليس من ذلك النوع الراقى . ولا تلك «الماركة» الـ « Luxe » ...

وأسرة الفتاة متوسطة الحال . والفتى كذلك متوسط الحال . الفتى الخطيب لا الفتى الخلاب . وتقبل الاسرة الخطبة وتسير اجراءاتها بسرعة البرق . وتحاول الفتاة ان تتمنع وأن تثور على الزواج ولكن ماذا تستطيع أن تفعل . وكيف تملك أن تقاوم والشاب الفخم الفاخر متزوج ! ولم يعرض عليها الزواج ؟ !

اذن لتخضع لحكم الواقع وحكم العقل . ولتتمرن على ان لا تفكر الا فى خطيبها والا فى سعادتها الزوجية المقبلة . ويساعد الفتاة على النسيان ان الشاب الفخم الفاخر قد اختفى من الميدان وسافر الى «أوربا» مع زوجته لتمضية فصل الصيف . وهكذا تتوارى الآمال والاحلام ...

❊ ❊ ❊

ويتم الزواج وتمر على عهده اربعة شهور سعيدة . هادئة . فيها حب وافر من الزوج المتواضع ، وحب «ميولوجى» من الزوجة الطماحة ...

ثم يعود الشاب ذو السيارة الفخمة الفاخرة من رحلته ، ويعود موسم العمل فى قصر السيدة الوقورة ...

❊ ❊ ❊

ويستدرج الزوج المتواضع وزوجته الصغيرة الى القصر العظيم والى السهرات المتلألئة . والى الوسط الخلاب . فينتهز الشاب الثرى الفرصة . ويختلس اللحظات ويغازل الفتاة فى غفلة من زوجها ... وفى غفلة من زوجته ؟ !

وتمتزج الاسرتان وتتصادقان ...

وتتكرر دعوة الشاب الثرى «للولو» فى السينما . والمسارح مع

أسرته تذهب وحدها . حتى اذا ماانتهت الرواية وصلت السيارة الى منزله لتوصيل عائلته . وعادت تحمل الشاب الثرى والزوجة الصغيرة الى منزلها ...

وفى الطريق تنجلى عواطف . وتصدر زفرات وتأوهات . وتسيل دموع . والفتاة مبهورة بمظاهر اليسر . مأخوذة بسيطرتها على قلب الشاب الارستقراطى النبيل الجميل الموسر . فتندفع! ويتمكن الحب من قلبها

أيها الازواج المتواضعون :

✻ ✻ ✻

أخطر عنصر على سعادتكم الزوجية المتواضعة ان توجدوا زوجاتكم فى جو الامانى والآلام والاحلام . وفى الوسط الراقى الباهر الساحر الخاطف للابصار . حتى اذا عدتم الى بيوتكم الرقيقة الحال . والى «شققكم» الضيقة المجال . أخذت الزوجات المحرومات المتطلعات المتمنيات تتحسر وتتمنى وتريد ؟ ! ...

مظاهر العز فتنة . واجواء اليسر مزلقة . فاحصروا زوجاتكم فى جوكم . واحبسوهن فى وسطكم . وحذار حذار ان ترقوا بهن للسماء لحظات . ثم تهبطوا بهن الارض سنوات ؟ !! ...

✻ ✻ ✻

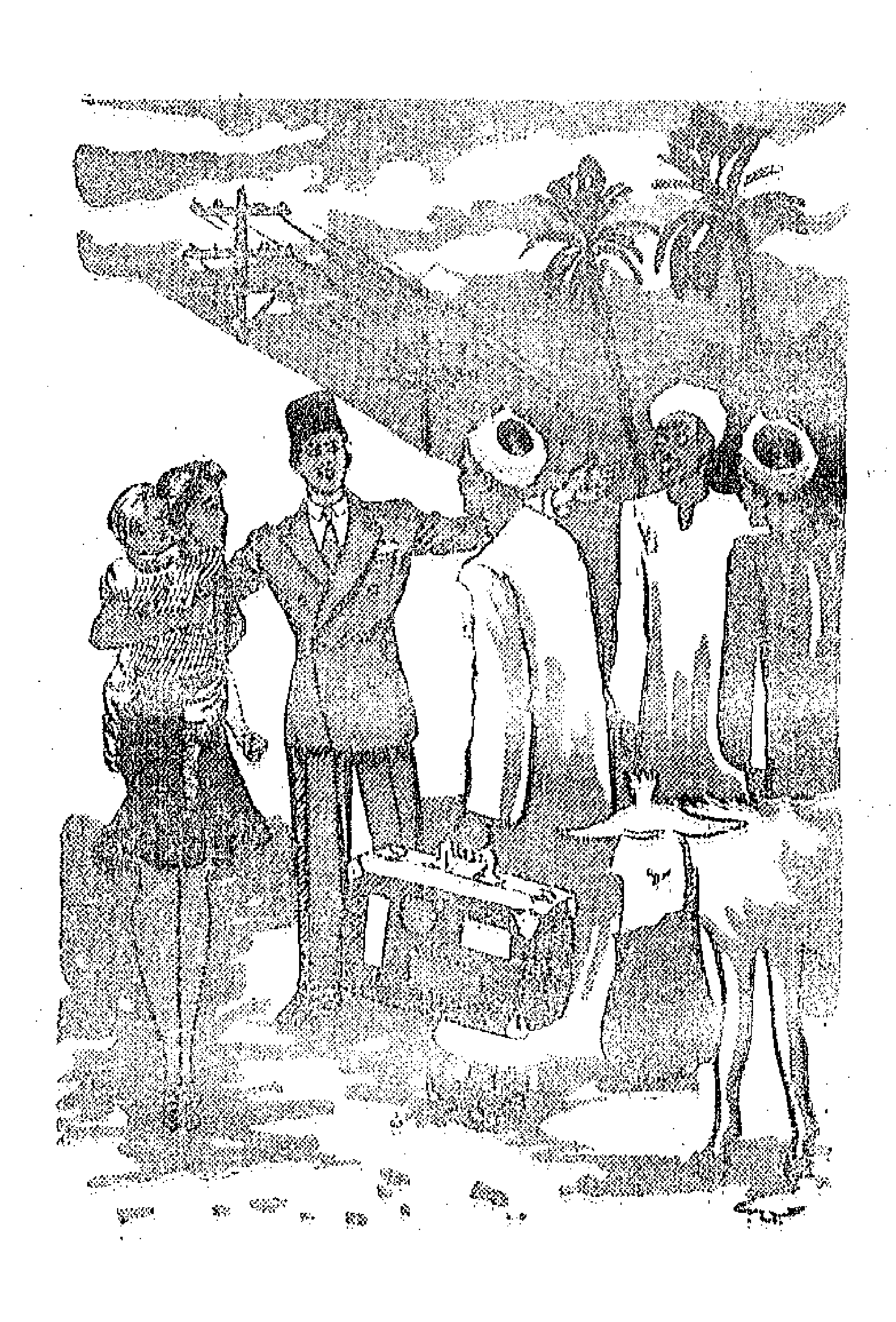
وهكذا لعبت الفتنة بلب الفتاة . فتغيرت على زوجها وتنكرت لجوها ووسطها . وأوعز اليها الشيطان الارستقراطى ان تبذل كل وسائلها للطلاق من زوجها . واعدا اياها وعد النبيل الحر . والكريم الاصيل . ان يتزوج منها فى الحال ...

لم تكن العصمة فى يدها . ولم يكن حق الطلاق حقها . لئن كان هذا صحيحا فى عرف الشرع وفى عرف العرف فانه لم يكن كذلك فى عرف « العمل » ...

المرأة التى تريد الطلاق . ولاتملك الطلاق . تستطيع الطلاق!.

« لولو » الصغيرة الساذجة خلق منها الحب شخصية أخرى فهى قد أصبحت فى البيت الشر والثورة ، والكدر ، والتعاسة..!

ولمح الزوج المتواضع المسكين هذا التطور فعالجه بالرقة تارة . وبالنصح تارة أخرى .. وبالتهديد حينا وبالوعيد أحيانا ... حتى اذا ماكشف السر وكانت لديه مقدماته يئس من الاصلاح ففوض أمره للقدر ...



ان الرولزرويس لم يكن في الانتظا .. بل ان في الانتظار حمار عادي

وكان المسكين يحبها حب العبادة . ولكن كانت له بقية من كرامة وعزة نفس . وصارحته وصارحها بالطلاق فأصبح أمره محتوما .

***

وفى يوم من الايام حضر المأذون الذى حرر عقد الزواج ليحرر صيغة الطلاق . فى جمع من أهل الزوج واهل الزوجة . بذلت النصائح والفتى يتوجع . والفتاة تصمم ...

. ولم يملك الفتى المسكين الا ان يبكى . والمأذون يدون ويسطر حتى اذا تمت الاجراءات سلمها ورقة الطلاق وهمس بهذه الكلمات :

« عندما تحتاجين الى . وأعتقد انك ستحتاجين ؛ تجدينني فى خدمتك »

***

فى الزيتون « فيلا » صغيرة جميلة مضت فيها « لولو » شهور العسل فى الحرام لا فى الحلال ..

باعت جسمها وروحها لعشيقها .. وخطيبها .. بيع السماح ..

أما المقابل فكان مجرد الوعد ..

وبعض المصروف الضرورى للحياة ...

وكانت له مخلصة الاخلاص كله . وكيف لا ! الم تكن تمهد للزواج ؟ ...

أما مظاهر الاخلاص العجيب فأهمها واخطرها أنها قطعت صلتها بالعالم . لا بالصديقات فقط . بل بأمها واخواتها وأفراد أسرتها . وكانت الكبرياء تحول بين هؤلاء وبين الاتصال بها فى بداية الامر ولكن يا للقلوب الرحيمة الحنونة ! ...

مهما سقطت الفتاة فان سقوطها لا يحول بينها وبين قلوب الام والشقيقات ...

وبذلت الشقيقات محاولات جريئة للاتصال بها فرفضت رفضا باتا : ان خطيبها أراد !!!

وسمعت الام الرؤوم ان ابنتها مريضة فزحفت وزحفت حتى وقفت امام الباب وطرقت ...

فتح الباب وعرفت الفاتح بشخصيتها فماد يعتذر اليها · البيك لا يريد !!!

وعادت الام مدحورة مهزومة تبكي جحود البنات ...!

***

وطال الامر على الزواج ومشروع الزواج . وفي اثناء المطل والتسويف سقطت الفتاة مريضة بسبب اعف عن ذكره . اما المجرم المتسبب فكان الشاب الارستقراطي . ونقلت الفتاة المستشفى فمضت فيه شهوراً ... وولدت فتاة !!!

في الشهر الثاني من شهور المرض زارها المغرم الولهان، والخطيب النبيل . وقد ارتسمت على وجهه علامات الالم والكدر :

قالت له : مالك يا « حسين »؟...

قال : مصيبة ...

قالت جزعة : ماذا ؟!

قال : زوجتي مريضة بالكلى، وقد نصح لها الاطباء بالسفر في الحال الى فرنسا للاستشفاء تمهيداً لاجراء عملية عند الدكتور « ماريون » الطبيب العالمي الشهير ...

قالت النبيلة الفقيرة : من واجبك اذن ان تسافر !

قال : نعم ...

قالت : الامر هين . سأصبر على فراقك . وصحتي تتحسن فان كنت تحسب حسابي فاني اقدر حرج مركزك . فلا تتردد!.

قال : شكراً ...

وتنهدت الفتاة

قال : لم تتنهدين . اني لا ازال على وعدي . وبمجرد عودتي سنعقد العقد !

قالت : اني لا اسيء الظن بشرفك . متى تسافر ؟

قال : في اقرب فرصة . لقد اعددنا كل شيء، وربما رحلنا باكراً فاذا حالت الظروف بيني وبين زيارتك مرة اخرى فاني اودعك الآن

ارتاعت الفتاة . ولكنها كظمت الغيظ وكتمت الالم وتظاهرت بالثبات

وتبرع النبيل الاصيل بقبلة ... ثم نهض مستأذناً ..

ولكنه ظل واقفاً مرتبكاً ..

قالت : صارحني . انت تخفي شيئاً ! ...

قال : نعم ..

وانتظرت الفتاة التفسير ...

ومرت دقيقــة ...
قالت . تــكلم ..
قال : انى خجل ...
قالت : وهل بيننا تكليف ؟
قال : لولو ! .. هل عنـــدك نقود ؟ لانى مأزوم وعبثا حاولت الحصول على مال ...
انتصبت الفتاة الشريفة رغم مرضها وهزالها وقالت :
— نعم . عندى يا حسين . عندى اربعمائة جنيه فى البنك . مبلغ وفرته منك . فهو مالك . فى الشنطة دفتر الشيكات فهاته ..
وانثنى النبيــل الاصيل عليها يقبلهــا ثم احضر لهــا الدفتر ووقعت بالصرف لحامله ...
قال وهو يطويه : ثقى يا لولو اننى لن انسى معروفك ابدا . وساعرف كيف ارد قرضــك وكيف أؤدى واجبى نحوك يا انبل مخلــوق ...
قــالت وهى تقبــله : اطلب لزوجتك الشـــــفاء وادعو لك بالســــلامة ...
وانتهت اجراءات الوداع على ارق واحسن ما يكون . وغاب النبيل الاصيل عن النظر ..

***

ان « الفيلا » لم تعش طويلا بعد خروج الفتاة من المستشفى ..
السبب واضح : ان النبيـــل الاصيل الذى غاب عن النظــر . ظل غائبا عن النظــر بشــخصه وبرسائله وبصوره . وان الاربعمائة من الجنيهات كذلك غابت عن النظر وكانت كل ما تملك ...
وسكنت الفتاة فى الحال شقة صغيرة وهى تصبر صبر الكرام معللة النفس بعودة النبيل الاصيل وبتحقيق الوعد النبيل الاصيل .
وكانت تعرف عنوانه فى « كوك » فاخطرته بحالتها وبعنوانها :
وفى يوم من الايام دق جرس الباب . ففتحته بنفسها واذا بها امام ساعى التلغراف ..
كادت تقفز من الفرح وخصوصا عندما علمت انه من الخارج ..
وفضت التلغراف بنشوة السكران من البشرى وقلبها يكاد يقفز من مخدعه واذا بها تقرأ :

« أبلغك اسفا انك حرة . اني تحت ضغط الظروف القاهرة اقطع علاقتي . اكرر اسفي » .

« صديقك »

صعقت الفتاة وأغمى عليها بعد صرخة تذيب الحجر . لم يكن هناك الا « ساعي التلغراف » الذي ظل واقفا ينتظر البقشيش ، وكان شابا فيه مروءة فأجرى الاسعافات اللازمة حتى استعادت قواها ...

***

وبذلت الفتاة جهود الجبابرة لتثبت حق البنت المجحودة وليدة العلاقة غير الشرعية . فذهبت مساعيها هباء ..

وتعرفت الى الاستاذ « شكرى » فكانت من الضحايا التى قذف بها خضم الحياة المضطرب الى « الجارسونييرة » . ولمح فيها سرا . ولمحت فيه شمما . فعف وعفت . حتى كشف يوما من الايام في زيارة لها ان على « الشيزلونج » صوتا بريئا ينبعث من تحت الغطاء :

قال : ما هذا ؟

قالت : دموعي وآلامي وتعاستي ...

قال : افصحي !

قالت : بنتي ...

قال : وبنت من ؟

قالت : بنت الشارع . بنت الزقاق . بنت القدر ! ...

***

ايها الشباب النبيل : الاصيل : اذا سألتموني ماذا تشتغل « لولو » اليوم ؟ أجبتكم :

ــ ابحثوا عنها في شارع عماد الدين ... انها تشتغل « راقصة » ؟ !

. . . .

٤ — الشقيقتان

عودوا بنا قليلا الى سنة ١٩١٢

ان الذاهب الى « مصر القديمة » يرى فى المدخل قبل مستشفى « هرمل » منزلا كبيرا فى الفضاء أو فى المزارع لاأذكر جيدا ... ثم لا أريد أن أعين جيدا ... ودعونى أغالط فى الجغرافية مادمنا نسجل الحقائق!

فى ذلك المنزل كانت تقيم عيلة كبيرة

رب العيلة موظف كبير كان يتقاضى من الحكومة مرتبا كبيرا

وكان مغرما بالزواج . وكان رجلا من « الدقة القديمة » خشنا فى مزاجه وفى طباعه . وابى خياله السمج الا ان يجمع زوجاته الثلاث فى ذلك المنزل الكبير

وكان له من الزوجة الاولى أولاد كبار . هم اليوم من كبار موظفى المصالح والدواوين

وله من الزوجة الثانية أولاد كبار . أغلبيتهم آنسات أو سيدات وابن واحد أظنه قد مات

وله من الزوجة الثالثة بنتان

الاولى كانت تبلغ السادسة عشرة واسمها « سميحة »

والثانية كانت تبلغ من العمر الحادية عشرة واسمها « احسان »

***

ويقطن بجوار المنزل طالب يبلغ من العمر ستة عشر عاما — هو ايضا — كان اذ ذاك بالمدرسة السعيدية

وتزاورت أسرة الطالب مع « اسرات » الموظف الكبير ذى الثلاث زوجات وامتزجت العيلتان

* * *

كانت الفتاة الكبرى فى المدرسة « السنية » وكانت معروفة بجمالها الفتان : اللون الاسمر الخمرى . والشعر الطويل مودة ذلك الوقت

وبهذه المناسبة أودفى مؤلفى هذا أن أسجل اننى من ألد أعداء الشعر غير الطويل ... انا من خصوم الشعر المقصوص على طريقة أولاد البلد وطلبة المدارس وغواة « القصة » الامامية من ابناء

الفلاحين ... الشعر الطويل النامي جمال مستقل بذاته ، يوحي بالخشوع والاجلال ويلفت النظر وحده كنعمة ثرية من نعم الله ... له كبرياء وله عظمة وله مغناطيس ... ثم له دلال حين يختفي فيه الوجه الجميل ... ثم سحر حين يتناثر باهمال مقصود فبعضه يتدلى على الصدر . وبعضه يجثم على الكتف . وبعضه ينسحب على الظهر ... ثم له روعة حين يلعب به النسيم . ثم يأكل القلب حين يغمر العاشق وجهه بين ثناياه وحين يمسح به دموع الحب والغرام ؟!

من عهد أن قضى الجهل وسوء الحظ على هذه الثروة قلت في نفسي وداعا يا رمز الجمال . حين تجلى « القفا » وبرز ثقيل الظل ، ثقيل الدم ، ثقيل الوطأة على النظر اجرد امرد أخضر قلت وداعا يا جاذبية !

اقول لكن الحق يابنات اليوم لقد انتحرتن شعرا ... والتمس منكن حظا السيدات كبيرات السن نوعا . كان الشعر الطويل النامي يهوش نوعا ما على انقاض جمالهن المتخلفة . فلما أجهزن عليه اجهزن — حتى — على الانقاض ؟!

❋ ❋ ❋

كان طالب مدرسة السعيدية حريصا على الوجود بمنزل أسرته حين تحضر سميحة . وكانت هذه حريصة على أن تذهب حين يكون الطالب موجودا

وكانت حجة «سميحة» في الزيارات المتكررة الصداقة التي توثقت عراها بينها وبين أخت الطالب وان كانت اصغر منها سنا بكثير . ثم كانت دائما ابدا يصحبها حارس : اختها احسان

وكم كانت «الاخت» ولا تزال ليومنا هذا « الحجة » وكم كانت ولا تزال واسطة التعارف . وصاحبة الفضل في تكرار المقابلات ووضع الحجر الاساسي في العواطف .... خذوا كلامي ببساطة ولا تغضبوا ايها الاخوة اشقاء كنتم أو غير اشقاء .

طالما استخدمتم الاخوات في انشاء العلاقات . وفي تنميتها وتغذيتها وفي نقل الرسائل وفي اصلاح ذات البين . وقد يكون هذا وذاك يتجه اتجاها صالحا ولكنه قد يتجه في بعض الاحيان اتجاها فاسدا . في سبيل الاهواء . أيها الاخوة

لا تعفون ولا تذكرون انكم تلقون اخطر الدروس على الاخوات وانكم ترسمون لهن خطط الحب والهوى . وانكم تكشفون لهن اسرار وسائل العشق . وانكم تحرضون تحريضا حماسيا على ان يفعلن مثلما تفعلون وعلى ان لا يرين فى الغرام شيئا يخدش السمعة ويؤذى الكرامة . . .

هذه ملاحظة عرضية لاتمت فى اصلها او فى نتائجها بنسب الى وقائع حكايتنا ، ولكنى لم استطع ان اغفلها وانا امر مرا على علاقة « الحب الابجدى » الذى نشأ بين الطالب — وبين « سميحة »

وكان لابد من مراسلات وخطابات . اما أخت الطالب فرفضت — على سذاجتها — بتاتا ان تكون ساعية البريد . واما اخت « سميحة » فقد التحقت بالخدمة . . .

وانى اسائل نفسى مندهشا : لم يشغف العشاق من هذا السن ومن هذا الصنف شغفا عظيما بالمراسلات ؟!

فى درج كل طالبة وفى درج كل طالب رزم مكدسة من رسائل الحب باللغات الثلاث : العربية . والانكليزية . والافرنسية . . . ثم بجانب هذه الخطابات صور فوتوغرافية فردية وزوجية تجمع بين العاشقين فى مختلف الاوضاع وقد قرأت كثيرا من هذه الرسائل الحنونة فوجدت فيها غلوا واطنابا وتسامحا وجنونا ونزقا . ووجدت اساليبها من نوع اساليب القصص فضلا عن انها امتازت بخيال لا يخلو من سخافات ومضحكات . . . فهذه فتاة تهدد بالانتحار — وهذا فتى يهدد بالقتل — وهذه اخرى تهب نفسها هبه شرعية لصديقها — وهذا اخر يقترح الفرار — وهذه تصف حالتها النفسية وتعرض تفصيلا دقيقا لهواجس الارق — وهذا يرفق بخطابه منديلا مبللا بماء الدموع ؟!

ثم تنقطع العلاقة الغرامية بحكم الظروف او بحكم الضرورة او بحكم الفشل ، فتبقى خطابات الفتاة ومخلفاتها عند الفتى ، وتبقى خطابات الفتى وملحقاتها عند الفتاة ، ثم يلعب الزمن الطويل دوره وتمر الاعوام والاعوام وقد تكون الفتاة قد ارتفعت الى الجوزاء وقد يكون الفتى قد هبط الى الحضيض . وقد يكون العكس . ويظل السلاح القاسى الحاد فى يد كل طرف ومن يدرى كيف يستعمله ؟ .

والمحب بحسب اختباراتى العديدة فياض ثرثار . يحكى ويروى لكل صديق ولكل صديقة . وبرهانه الدليل الكتابى الذى فى يده . وكم عانت الاسر المصرية مصائب بسبب هذه المراسلات . .

هل تطمح هذه « القصة » فى ان تسدى الى المحبين الناشئين نصيحة : ان يحبوا ماشاء لهم الحب ولكن لايكتبون !!!

***

ترعرع الحب بين الطالب وبين « سميحة » . . وكانت الشقيقة الصغرى هى ساعية البريد . وفى يوم من الايام حملت لاختها خطابا من نوع ماوصفت فضبطه الوالد الخشن وفضه وقرأه . وكانت ثورة : اما العقاب البدنى فتوقع على الفتاتين . وكانت الصغرى هى صاحبة النصيب الاوفر . وصدرت الاوامر بالقاطعة ، وبمنع الزيارة . وبالاكتفاء بما تعلمته الفتاة من المدرسة ؟! . .

وعانت « احسان » الصغرى من الضرب الشديد ماعانت . وسجل عام ١٩١٢ وراء اذنها اليمنى جرحا مزمنا لعبت فيه ايدى الاطباء ومن ضمنهم « نصف طبيب » فى مدرسة الطب . طالب فى السنة الثانية قدمه « طالب السعيدية » وسبب المصيبة هدية ليقوم بالعلاج . واندمل الجرح البدنى بعد زمن طويل ولكنه خلف شيئا . . علامة مادية بقيت للذكريات . .

***

تزوجت « سميحة » بعد ذلك فانقطعت العلاقة بينها وبين طالب السعيدية . ثم فرق الزمن بين الاثنين وانسدل الستار على الذكريات . .

***

فى سنة ١٩٢٧ اى بعد مرور خمسة عشر عاما يدق جرس الباب فى « الجارسونييرة » دقا رقيقا . يفتح « المتر شكرى » الباب ويستقبل زائرتين . احداهما فى سن الخامسة والاربعين . لا تستحق الوصف لانها ليست بالجميلة والثانية فى سن السادسة والعشرين جميلة من كل ناحية . صاحب « الجارسونييرة » يعرف الكبرى ولكنه لا يعرف الصغرى . وجرى التعارف والصغرى تحدق فى وجه الاستاذ بشغف وفضول . .

ودار الحديث والصغرى واجمة . تسمع ولا تنبس ببنت شفة لفت هذا الجمود نظره فوجه اليها حديثه وأخذ يحييها وهى ذاهلة . ثم كان اغماءة نصف يقظة قد غشيتها فهى تغيب عن المجلس وعما يدور فيه ، ثم تتنبه وتتأوه ؟ . . .

قال الاستاذ لنفسه : ان فى الامر شيئا

ثم قال لها : هل السيدة تشعر بتعب ؟ !
قالت بخفوت : لا
ثم قالت : نعم
قال : بماذا تشعرين ؟
قالت بظرف : لا تنشغل . الامر هين
ثم نهضت فجاة بشكل عصبي واشارت اليه ان يتبعها الى الصالة ...
قام وراءها وقد شغلته هذه الحركات العجيبة . وفي ركن من اركان الصالة همست في اذنه قائلة :
هل كنت تسكن « مصر القديمة » منذ خمسة عشر عاما ؟
قال مضطربا : نعم !
قالت : وكنت طالبا بمدرسة السعيدية ؟
قال مضطربا : نعم !
صمتت ، ثم حدقت ، ثم هطلت دموع ثم ارتمت على الكرسي ... تناول يديها واخذ يهدىء روعها وهو لا يذكر شيئا. وهو اذ يحاول ان يستدعي صديقتها الكبرى تقبض على انامله ثم تشدها شدا الى ماوراء اذنها اليمنى وتهمس : المس ، وتذكر !
جرح ؟ !
بل اثر جرح ؟ !
ويفيق الاستاذ من نوبة المفاجآت ويصرخ بجزع : انت ؟ ! أنت ...
فتقول : نعم انا ! انا « احسان » ...

***

احسان ! ...
احسان الصغرى أخت سميحة ...
وبعد خمسة عشر عاما ..
قال وقد تحركت عواطفه من قبرها الذى دفنت فيه في سنة ١٩١٢ :
ـ وسميحة يااحسان كيف حالها ؟
قالت : مثلي ! ...
قال : ماذا تعنين ؟

قالت : هكذا ... نزورك ونزور أمثالك من سكان الجارسونيرات !
وأخذت تبكي بكاء مرا وقد وقف بجوارها منذهولا متحسرا متألما
وهو يقول : ما أقساك أيها القدر ! ...

❊ ❊ ❊

وفي اليوم التالي حضرت الشقيقتان وكانت مناحة ...
لقد مات زوج الكبرى وخلف أولادا وخلف فقرا ... ومات
ابو الشقيقتين وخلف هو الآخر فقرا .. بقي الاخوة الرجال الكبار
الذين يحتلون اليوم مناصب الدولة الكبيرة في بعض المصالح بالقاهرة .
منهم الذي يشرف على معاهد الاخلاق، ومنهم الذي يدير ملاجيء
البؤساء التعساء ، ومنهم الذي يجري الرزق على معشوقاته ببذخ
واسراف ، ومنهم الذي برز في الهيئة بروزا ساطعا ...

يكفي ان تقول احدى هاتين لاحدهم انا اختك ! لتحطمه تحطيما
أدبيا أبديا . ولكن يالعواطف المرأة حين تقبر سرها من اجل
الآخرين ؟ ! ...

هؤلاء الانذال تركوا الاختين غير الشقيقتين للقضاء والقدر
وللدنيا . ضنوا عليهما بالقوت فدفع « المرض » الثمن فلم يبالوا !
أيها الناس : لاتحتقروا بالله عليكم هذا الصنف من « ضحايا القدر »
واصلحوهن ان وجدتم مجالا للاصلاح ، فان يئستم فلا أقل من
العطف ولا أقل من احترام الدموع والاشجان ! ! !

❊ ❊ ❊

ان « قصص الجارسونيرة » عديدة وكلها من لون هذا الالم
النفساني ومن نوعه . ولو احتمل المجال لقصصت عليكم مائة مأساة
ومأساة ..

يعيب المتطرفون في عالم الاخلاق الفاضلة على الشباب مثل
هذا المسلك الذي يعدونه في نظرهم معوجا ...

ولست أحاول الدفاع فاني من ذلك الرأي ، ولكن لابد للكاتب
الاجتماعي ان يتصل بالمجربين ليدرس وليتعلم ان لم يغمر نفسه
متعمدا في خضم ذلك البحر الرهيب . والا فمن أين يغترف
النصائح وهي بنت التجربة ووليدة الاختبار ؟ !

❊ ❊ ❊

قلت لصديقي « شكري » بعد أن وصلت في كتابي الى هذا الحد :
هل عندك من مزيد ؟ !

قال : عندى الادهى والامر . عندى تاريخ اربعة أعوام رهيبة ، ولكنى سوف أخفيه عنك الى اجل . . .

قلت : ولم ؟ .

قال : لانه متصل بالدولة ، وبسياسة الحكم وبالاقطاب ! . .

قلت : وهؤلاء ؟ !

قال : مثلى ومثلك تماما ، غيراننا ، أنا وأنت ، من « الاحرار » الذين لاتقيدهم زوجة ولا عيلة ولا اولاد ــ من الذين لايحملون على جباههم عنوان الوظيفة ، ولا علم الدولة ، ولا واجب الحكم ــ من الذين لاتتأثر بسلوكهم المعوج مصالح العباد . . .

قلت : وهل من علاقة بين المرأة ، والدولة ؟ !

قال : هذا هو موضوع مذكراتى الآن ، فاستلمها منى بعد عام .

. . . .

فراق وخاتمة

فى صيف ١٩٣٢ ظفرت « بالضاحك الباكى » فى بلاج من بلاجات الاسكندريه الثائرة فقرات عليه قصته الاستعراضية . ووجدته قد تغيرت أخلاقه ، وقد اتزن . .

قال : اقترح عليك أن نفترق . . .

قلت : لامانع عندى . ولكن الاترى ان تكتب بيدك خاتمة قصتك ؟

قال : حسنا . اليك كلمتى الاخيرة :

« مواطنى الشبان :

« شاء صديقى أن يقدمنى اليكم شابا مستهترا لتنتفعوا بمآسيه ومباذله . . .

« انى اقبل هذه التضحية فى سبيلكم عن طيب خاطر . . .

« لكن تحت شرط :

« ان تقبلوا منى نصيحتين اثنتين :

الاولى : ان تتزوجوا قبل الخامسة والعشرين . . .

والثانية : ان لاتشتغلوا بالسياسة قبل الخامسة والثلاثين . .

والى اللقاء

شكرى